تجاهل العارف
دراســـــة بلاغيـــــة
(تاريخية فنية)

الدكتور

محمد سويفي محمد سويفي السمين

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بأسيوط

العدد الحادي والعشرون

للعام ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م

الجزء السابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٧م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

أحمده (ﷻ) حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على صفوة أنبيائه وخاتم رسله سيدنا محمد بن عبد الله أفصح العرب لساناً، وأفضلهم بياناً، وأوجزهم لفظاً، وأوفاهم غرضاً من أعطاه ربه جوامع الكلم وعلمه الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد ،،

فهذه دراسة بلاغية (تاريخية فنية) لمصطلح بديعي يعد من أفضل المحسنات البديعية المعنوية وآية من آيات البلاغة العربية لما يحققه من مبالغة في إفادة المعنى المراد وهو مصطلح (تجاهل العارف) .

<u>وقد دفعني إلى دراسة هذا المصطلح البديعي ما يأتي:</u>

أولاً : رغبتي في الرجوع بهذا المصطلح إلى جذوره الأولى منذ ظهوره على يد عبد الله بن المعتز وموقف البلاغيين الذين أتوا بعده من مصطلح تجاهل العارف.

ثانياً: أن بعض البلاغيين يرون أن هذا اللون لا يتحقق إلاَّ إذا كانت هناك قوَّة شبه بين المشبه والمشبه به حتى يظهر للمتكلم أنه لا يستطيع أن يفرق بينهما، والواقع أن تجاهل العارف أعم من ذلك .

ثالثاً: أردت أن أفرق بين تجاهل العارف والاستفهام وخاصة التقريري منه لما بينهما من اشتراك.

رابعاً: مناقشة البلاغيين فيما قالوه حول هذا المحسن البديعي إذا تطلب الأمر ذلك.

وقد جاءت هذه الدراسة في فصلين:

الفصل الأول فهو: تجاهل العارف دراسة تاريخية.

واشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: (تجاهل العارف منذ عصر ابن المعتز إلى عصر السكاكي).

وفيه أشرت إلى ظهور هذا المصطلح على يد عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، وارتضيت ما ذهب إليه بعض أهل العلم من علمائنا المعاصرين من أن هذا اللون من ابتكارات ابن المعتز ثم أشرت إلى تطور هذا اللون عند من أتى بعده كأبي هلال العسكري (ت ٣٧٥هـ) وابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)، ونصر بن الحسن المرغيناني من علماء القرن الخامس، وابن حيدر البغدادي (ت ٥١٧هـ) ورشيد الدين الوطواط (ت ٥٧٣هـ)، وأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ).

وبينت الدراسة تطور هذا المصطلح على أيدي هؤلاء ومدى ما أضافه اللاحق للسابق .

ثم ختمت هذا المبحث بأبي يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦هـ) وذكرت أنه رأى العدول عن تجاهل العارف إلى (سوق المعلوم مساق غيره) فهي تحقق ما تحققه عبارة (تجاهل العارف) ولكنها أكثر تأدباً مع كلام الله تعالى .

أما المبحث الثاني: (تجاهل العارف عند البلاغيين المتأخرين عن السكاكي).

قد بينت فيه موقف هؤلاء العلماء مما ذهب إليه السكاكي، وكيف كانت دراستهم لتجاهل العارف فقد عرفوه وذكروا له نكاتاً وأغراضاً بلاغية، ومثلوا لكل

نكتة بما يناسبها، وشمل هذا المبحث ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، وكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني (ت ٦٥١هـ)، وابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، والخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، وابن يعقوب المغربي (ت ١١١٠هـ) .

وقد ركزت الدراسة على بيان دور هؤلاء العلماء في توضيح وتجلية هذا المحسن البديعي كما بينت موقف أكثرهم من عبارة السكاكي (سوق المعلوم مساق غيره) .

أما المبحث الثالث فقد تناولت الدراسة فيه تجاهل العارف عند بعض شراح البديعيات وعلى وجه التحديد شهاب الدين الغرناطي .

وأما **الفصل الثاني: تجاهل العارف دراسة فنية**

فقد اشتمل على دراسة فنية وتطبيقية لبعض شواهد هذا المحسن البديعي من كلام الله تعالى وأشعار العرب وقد وضعت هذه الشواهد تحت نكات بلاغية حددها سياق الكلام .

هذا ولعلي أكون قد وفقت في دراسة هذا المحسن البديعي المعنوي دراسة تاريخية فنية .

وإلا فحسبي أني اجتهدت والمجتهد لا يحرم الأجر وإن أخطأ .

ربنا هب لنا صدقاً في القول وإخلاصاً في العمل: وهيء لنا من أمرنا رشاداً . ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرَّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الفصل الأول

تجاهل العارف دراسة تاريخية

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تجاهل العارف من عصر ابن المعتز إلى عصر السكاكي

المبحث الثاني: تجاهل العارف عند المتأخرين بعد السكاكي

المبحث الثالث: تجاهل العارف عند بعض شراح البديعيات

المبحث الأول

تجاهل العارف من عصر ابن المعتز إلى عصر السكاكي

ظهور تجاهل العارف في القرن الثالث الهجري على يد الخليفة العباسي عبد الله ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ).

ألف ابن المعتز كتابه (البديع) سنة أربع وسبعين ومائتين للهجرة قال: (وما جمع فنون البديع، ولا سبقني إليه أحد وقد ألفته سنة أربع وسبعين ومائتين)[١] .

ذكر ابن المعتز في كتابه (البديع) ثمانية عشر لوناً أطلق على خمسة منها اسم البديع، أما بقية الألوان التي ذكرها وعددها ثلاثة عشر لوناً فقد وضعها تحت اسم (محاسن الكلام) وكان من بينها مصطلح (تجاهل العارف) موضوع الدراسة.

والذي أود أن أشير إليه – وقد صرَّح به كثير من أهل العلم – أن هذه الألوان البديعية، وتلك المحسنات التي ذكرها معظمها ليس من ابتكارات ابن المعتز، فهي موجودة عند غيره من السابقين [٢] .

ولكن الذي يعنيني في هذا المقام هو (تجاهل العارف) موضوع البحث: فقد قرأت ما تيسر لي من كتب السابقين على ابن المعتز فلم أجد عندهم عبارة (تجاهل العارف) أو ما هو قريب منها اللهم إلا إشارات ذكرها المبرد في كتابه الكامل تعليقاً على قول عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب:

---

(١) كتاب البديع، تصنيف: عبدالله بن المعتز تعليق: إغناطيوس كراتشقوفسكي، ط: دار المسيرة، ط: الثانية ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

(٢) ينظر: الصبغ البديعي في اللغة العربية للدكتور/ أحمد إبراهيم موسى صـ١٣٢ – ١٤١، نشر: دار الكتاب العربي – القاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

أأنْتَ أخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِيَ حَاجَةٌ

يقول المبرد: وقوله أأنت أخي ...

تقرير وليس باستفهام ولكن معناه: أني قد بلوتك تظهر الإخاء فإذا بدت الحاجة لم أر من إخائك شيئا، وقال الله (ﷻ): ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ [١] إنما هو توبيخ وليس باستفهام، وهو (ﷻ) العالم بأن عيسى لم يقله) [٢] .

ويقول المبرد في موضع آخر: (وقال أهل المعرفة في قول الله (ﷻ): ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[٣]، وإنما تسأل تبكيتاً لمن فعل ذلك بها)[٤].

وتعليقاً على قول المبرد في بيت الشعر والآيتين أقول لعله لا يقصد الاستفهام الذي على سبيل الحقيقة، وإنما الذي خرج عن معناه الأصلي إلى معان فرعية .

وما ذكره المبرد، وخاصة الآيتين ذكره بعض البلاغيين بعد ابن المعتز ضمن شواهد (تجاهل العارف) في مقام توبيخ غير المخاطب، أما ابن المعتز فلم يذكرهما، وهذا ما جعلني أكاد أجزم بأن مصطلح (تجاهل العارف) من ابتكارات ابن المعتز، كما جزم بذلك بعض أهل العلم وهو الأستاذ الدكتور/ أحمد إبراهيم موسى (/) حين قال: (تجاهل العارف وهو الذي سماه المتأخرون الإعنات

---

(١) سورة: المائدة، من الآية [١١٦] .

(٢) الكامل فى اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد: ٢١٣/١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع ونشر: دار الفكر العربي، من دون تاريخ .

(٣) سورة: التكوير، الآيتان [٨، ٩] .

(٤) الكامل فى اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد: ٨٥/٢.

والتشكيك، وذلك فيما نعلم من ابتكار ابن المعتز) [١] .

أما عن حديث ابن المعتز عن (تجاهل العارف) فقد ذكر ضمن ما أطلق عليه (محاسن الكلام) قال: (ومنها (تجاهل العارف) كقول زهير:

وما أدْري وسوف إخالُ أدْرِي ∴ أقومُ ألُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

وقال ابن أبي أمية:

فديتُكَ لم تَشْبَعْ وَلَمْ تَرْوَ مِنْ هَجْرِي ∴ أتَسْتَحْسِنُ الهجْرانَ أكْثَرِ مِنْ شَهْرِ

أراني سأسلو عنك إن دام ما ترى ∴ بلا ثقةٍ لكن أظنُّ لا أدْرِي [٢]

هذا ما ذكره ابن المعتز عن تجاهل العارف، فقد اكتفى بالإشارة إليه، ولكنه لم يذكر تعريفه أو القيمة البلاغية له، وإن كنت أرى أن مجرد ذكره تحت ما يسمى بمحاسن الكلام والشعر فيه دلالة على القيمة البلاغية له .

---

(١) ينظر: الصبغ البديعي في اللغة العربية للدكتور: أحمد إبراهيم موسى صـ١٣٧ .

ـ وأقول تعليقاً على كلام أستاذنا الأستاذ الدكتور/ أحمد موسى، سماه ابن رشيق التشكك وليس التشكيك، أما الإعنات فلم يقل به أحد سوى بدر الدين بن مالك في كتابه: (المصباح في المعاني والبيان والبديع) حيث قال بعد ذكره بعض المعاني المجازية للاستفهام: (وهذا النوع من الكلام أعني تعدي الاستفهام عن مورد الحقيقة يسمى الإعنات وسماه ابن المعتز: (تجاهل العارف). [ينظر: المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك صـ٨٨، تحقيق: د/ حسني عبد الجليل يوسف، طبع مكتبة الآداب، ط: الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م] .

ـ والواقع أن تجاهل العارف عند ابن المعتز وعند الجمهور غير الإعناتِ وليست هناك صلة بين الاستفهام والإعنات، ولا أدري كيف خفى ذلك على عالم كبدر الدين بن مالك، وهذا واضح من تعريف ابن المعتز للإعنات حين قال عن الإعنات (إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له). [البديع صـ٧٤] .

(٢) كتاب البديع لابن المعتز صـ٦٢ .

تجاهل العارف عند علماء القرن الرابع الهجري

إذا تركنا القرن الثالث الهجري إلى القرن الرابع نجد أنفسنا أمام ثلاثة من البلاغيين اهتموا بالشعر ونقده، ومحاسن الكلام وتمييز جيده من رديئه، واهتموا أيضاً بالبديع وأولوه عناية فائقة في كتبهم .

أما **الأول** فهو: أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ).

وأما **الثاني** فهو: ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ).

وأما **الثالث** فهو: أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ).

أما قدامة فقد عاش في أواخر القرن الثالث، وأوائل القرن الرابع، وهو يعد ثاني اثنين أسهما في صرح البديع الأول، وقد كان معاصراً لابن المعتز وإن تأخر به الزمان قليلاً، وكتابه يعد الكتاب الثاني بعد كتاب عبد الله بن المعتز، وقد عرض فيه عشرين لوناً من ألوان البديع، ولكنها خلت من تجاهل العارف.

ولم يختلف الحال عند ابن طباطبا العلوي عن حال معاصرة قدامة ابن جعفر فقد تحدث في كتابه (عيار الشعر) عن علم الشعر وطريقة نظمه ولكنه لم يذكر تجاهل العارف أيضاً .

وأما الثالث وهو: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري صاحب كتاب (الصناعتين – الكتابة والشعر) فقد خصَّ الباب التاسع من هذا الكتاب بالبديع، عرض فيه كثيراً من ألوانه عرضاً مفصلاً مشفوعاً بالشواهد من مختار الكلام (شعره ونثره) محللاً تلك الشواهد تحليلاً دقيقاً .

والسؤال الذى يطرح نفسه: أفطن أبو هلال لهذا المحسن البديعي فذكره فيما ذكر أم أهمله كما فعل معاصراه قدامة بن جعفر، وابن طباطبا العلوي ؟

والجواب على ذلك: نعم ذكر أبو هلال (تجاهل العارف) في جملة ما ذكر

من فنون البديع مستأنساً في ذلك بما كتبه ابن المعتز .

وإذا كان لابن المعتز فضل السبق في ابتكار هذا اللون البديعي فإن لأبي هلال فضل التوضيح والشرح، والإكثار من الشواهد، وإضافة بعض الأمور التي لم ترد عند ابن المعتز، كتعريفه وذكر الفائدة منه .

وهذا نص كلامه في ذلك: " تجاهل العارف ومزج الشك باليقين وهو إخراج ما يُعرف صحته مخْرج ما يُشَكُّ فيه ليزيد بذلك تأكيداً .

ومثاله من المنثور: ما كتبه إلىَّ بَعْضِ أهل الأدب: سمعت بوُرود كتابك فاستفزَّني الفرح قبل رؤيته، وهزَّ عِطْفي المرح أمام مشاهدته، فما أدري أسمعت بورود كتاب أم ظفرت برجوع شباب ؟ ولم أدر ما رأيت: أخطّاً مسطوراً أم روضاً ممطوراً ؟ وكلاماً منثوراً ؟ أم وشيْاً منشوراً ؟ ولم أدر ما أبصرت في أثنائه: أأبيات شِعْرٍ أم عُقُودَ در ؟ ولم أدر ما حَمَلَتْه: أغيثٌ حَلَّ بوادي ظمآن، أم غوثٌ سيقَ إلى لهفان .

... ومن المنظوم قول بعض العرب [١] :

بالله يا ظَبيَاتِ القاعِ قُلْنَ لَنَا ∴ ليلايَ منكُنَّ أمْ لَيلى من البَشَرِ

وقول الآخر:

أأنتِ ديارُ الحيِّ أيتُها الرُّبَا الـ ∴ أنيقةُ أم دار المَهَى والنَّعَائِم

وسِرْبُ ظِباء الوَحْشِ هذَا الَّذي أرى ∴ بَرْبعك أم سِرْب الظِّبَاء النواعمِ

وأدْمُعنا الَّلاتي عفاك انسجامُها ∴ وأبلاكِ أم صَوْبُ الغمام السَّوَاجِمِ

(١) اختلفت الأقوال في نسبة هذا البيت فنسبه أبو هلال لأعرابي لم يسمه ونسبه ابن رشيق للعرجي، ونسبه قوم لمجنون ليلى وقد وجدته في ديوانه صـ١٦٦، دراسة وشرح ديوانه لمحمود عاصي – مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر – بيروت – لبنان .

أيامُنـــا فيـــك اللَّـــوَاتي تصَـــرَّمَتْ ∴ مع الوَصْلِ أم أضغاث أحلام نـائمِ

وقال ذو الرمة:

أيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلاجِلٍ ∴ وبَيْنَ النَّقَا آأنتِ أمْ أمُّ سَالِمِ

وقال بعض المتأخرين [١]:

أرِيقُكِ أم ماءُ الغمامةِ أم خمرُ

وقلت:

أغُرَّةُ إسماعيلَ أم سُنَّةُ البَدْر ∴ وَفَيْضُ نَدَىَ كَفَّيْه أم باكِرُ القَطْرِ

وقلت أيضاً:

أثَغْـــرُ مـــا أرَى أمْ أُقْحُـــوَانُ ∴ وَقَـــدٌّ مـــا بَـــدَا أم خَيْـــزُرَانِ

وَطَـــرْفُ مـــا تُقَلِّـــبُ أم حُسَـــامُ ∴ ولفـــظُ مـــا تُسَـــاقِطُ أمْ جُمَـــانُ

وشـــوقُ مـــا أكابِـــدُ أمْ حَرِيـــقٌ ∴ وليـــلُ مـــا أقاسِـــي أم زَمَـــانُ

وقال ابن المعتز:

كـم ليلـةٍ عانَقْـتُ فيهـا بَـدْرَهَا ∴ حتَّـــى الصـــباحِ مُوَسَّـــداً كَفَّيْـــهِ

وسـكرتُ لا أدري أمِـنْ خَمْـرِ الهـوى ∴ أم كأسِـــه أم فِيـــه أم عَيْنَيْـــهِ

(١) هذا صدر بيت للمتنبي وتمامه: بِفِيَّ بُرودٌ وهْو في كَبِدِي جَمْرُ
ينظر: ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري . تحقيق: مصطفى السقا وآخرين: ١٢٣/٢، ط: مصطفى البابي الحلبي – ط: الأخيرة سنة ١٣٩١هـ ١٩٧١م .

وقال أعرابي [١]:

أيـا شِـبْه لَيْلَـى مـا لِلَيْلَـى مريضُـةٌ ∴ وأنـــتَ صَـــحِيحُ إنَّ ذَا لَمُحـــالُ

أقــولُ لظـبيٍ مـرَّ بـي وهـو راتــعٌ ∴ أأنتَ أخُـو ليلـى ؟ فقـال : يُقـال(٢)

هذا ما ذكره أبو هلال عن تجاهل العارف، والذي أُلاحظه أنه ذكر تسمية ابن المعتز، ثم أضاف إليها عبارة (مزج الشك باليقين)، وأرى أن عبارته لم تضف جديداً .

ولكن الذي يحسب لأبي هلال في هذا المجال أنه عرَّف تجاهل العارف، وأشار إلى الفائدة منه، وقد خلا كلام ابن المعتز من ذلك .

كما أنه أكثر من ذكر الشواهد (نثراً ونظماً)، وهذا يدل على قيمة هذا اللون البديعي عنده .

كما أن أكثر الشواهد التي ذكرها تدخل تحت دائرة التشبيه، أو التدله في الحب، كما في البيتين اللذين نسبهما إلى المعتز .

---

(١) البيتان لمجنون ليلى وهما في ديوانه صـ٨٩، شرح وضبط: د/ عمر فاروق الطباع، ط: دار العلم للملايين، بيروت .

(٢) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) صـ٤١٢، ٤١٣، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبع ونشر: دار الفكر العربي، ط: الثانية، من دون تاريخ .

تجاهل العارف عند علماء القرن الخامس الهجري

ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)

يعد ابن رشيق القيرواني من أبرز علماء القرن الخامس الهجري الذين كتبوا في البلاغة والنقد، وقد ظهر هذا واضحاً من خلال كتابه: (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده) .

ذكر ابن رشيق في كتابه كثيراً من الألوان البلاغية، وكان من جملة ما ذكر اللون البديعي المسمى (تجاهل العارف) موضوع الدراسة، وقد جاء عنده تحت مسمى (التشكك) .

ومما هو جدير بالذكر قبل عرض ما قاله ابن رشيق عن (تجاهل العارف) أن أشير إلى أنه وإن انتفع بكلام من سبقه وخاصة أبو هلال العسكري إلاَّ أن له إضافات تحسب له .

وهذا بعض مما قاله في ذلك [(١)]:

" باب التشكك وهو من مُلَح الشعر وطُرَفِ الكلام، وله في النفس حلاوة وحُسْنُ موقع، بخلاف ما للغلو والإغراق، وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما، ولا يميز أحدهما من الآخر نحو قول زهير:

وَمَا أدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أدْرِي ∴ أقَومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

فإن تكن النسَاءُ مُخَبئَاتٍ ∴ فَحُقَّ لِكُلّ مُحْصَنَةٍ هِدَاءُ

فقد أظهر أنه لم يعلم أنهم رجال أم نساء، وهذا أملح من أن يقول: هم نساء، وأقرب إلى التصديق، ولهذه العلة اختاروه .

---

(١) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٦٦/٢، ٦٧، تحقيق: الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد، ط: دار الجيل، بيروت، ط: الخامسة ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

... وقال سَلْم بن عمرو الخاسر:

تَبَـدَّتْ فَقُلْـتُ الشَّـمْسُ عِنْـدَ طُلُوعِهـا ∴ بِجِلْـدٍ غِـنيٍّ اللَّـوْنِ أثْـرِ الْـوَرْسِ

فَلَمَّـا كَـرَرْتُ الطَّـرْفَ قُلْـتُ لصَـاحِبي ∴ عَلَى مِرْيَـةٍ: مَـا هَـا هُنَـا مَطْلَـعُ الشَّمْسِ

فأنت ترىَ كيف موقع هذا الشك من اليقين وكيف حلاوتـه فـي الصـدر وقبوله ؟ فإنه لو كان يقيناً ما بلغ هذا المبلغ ...) .

من خلال هذا العرض السريع لما كتبه ابن رشيق عن التشكك أسـتخلص الآتي:

أولاً : صدر ابن رشيق شواهده للتشكك بقول زهير:

وما أدْرِي وسَوْفَ إخالُ أدْري ∴ أقومٌ آل حصنَ أم نِسَاءُ

وهذا البيت ذكره ابن المعتز من قبل تحت (تجاهل العارف) ومع ذلك فقـد ترك ابن رشيق عبارة (تجاهل العارف) التي ذهب إليها ابن المعتـز، واختصـر عبارة (مزج الشك باليقين) التي قالها أبو هلال، وخـرج بعنـوان ثالـث وهـو (التشكك)، كما أنه أشار إلى القيمة المعنوية لهذا اللون، فهو عنده من ملح الشعر وطرف الكلام ، وله في النفس حلاوة وحسن موقـع وأنـه أفضـل مـن الغلـو والإغراق .

ثانياً: يرى ابن رشيق أن الفائدة من مجيء الكلام بطريق التجاهل هو الدلالة على قرب الشبهين، وإن كانت شواهده التي ذكرها لم تبن كلها على التشبيه.

ثالثاً: لم يكتف ابن رشيق بذكر الشواهد فقط، كما فعل ابن المعتز وأبـو هـلال، وإنما علق على بعضها وأشار إلى وجه الحسن فيها .

رابعاً: لم يعرف ابن رشيق (التشكك) وإنما اكتفى بالإشارة إلى الفائدة منه، كما أنه خصه بالشعر، وهذا واضح من شواهده التي ذكرها في كتابه .

تجاهل العارف عند أبي الحسن المرغيناني في كتابه:

(محاسن الكلام) أو كتاب (المحاسن في النظم والنثر)

خصَّ أبو الحسن نصر بن الحسن المرغيناني[١] كتابه بالبديع ولكن كلمة البديع عنده عامة، فهي لا تقف عند حد البديع الذي عرف عند المتأخرين، وإنما تشمل: التشبيه، والاستعارة، والكناية الالتفات بجانب ما أطلق عليه بعد ذلك محسنات بديعية .

والمرغيناني في صنيعه هذا متأثر بصنيع عبد الله بن المعتز، وإنما قصدت عبد الله بن المعتز دون غيره لأني رأيت أثره الواضح في كتاب (محاسن الكلام) للمرغيناني . حتى إن محقق كتاب المرغيناني يرى أنه أخذ اسم كتابه من بعض عبارات ابن المعتز فيقول: " والجدير بالذكر في خاتمة هذا البحث أن نذكر أن من المحتمل أن يكون المرغيناني قد أخذ اسم كتابه من بعض عبارات ابن المعتز إنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام " [٢].

ذكر المرغيناني في كتابه كثيراً من المحسنات البديعية التي تدخل – من وجهة نظره – تحت محاسن الكلام مراعياً فيها حد الوسط، فلم يمل إلى الإطناب الممل، ولا إلى الإيجاز المخلّ قال: " ونحن ذاكرون من ذلك طرفاً، لا يعد تقصيراً ولا سرفاً بتوفيق الله وعونه وتيسيره وإذنه " [٣] .

---

(١) أبو الحسن نصر بن الحسن المرغيناني من علماء القرن الخامس الهجري كما ذكر محقق كتابه، وهو من علماء البلاغة الفرس الذين كتبوا باللغة العربية .

(٢) ينظر: محاسن الكلام أو كتاب المحاسن في النظم والنثر للمرغيناني، تحقيق: محمد فشاركي، مطبعة بروين أصفهان ١٣٦٤هـ ش مقدمة المحقق يز، وكتاب البديع لابن المعتز صـ٥٨ .

(٣) المحاسن في النظم والنثر صـ٢ .

وكان من جملة الفنون البديعية التي ذكرها المرغيناني تحت محاسن الكلام (تجاهل العارف) متأثراً في ذلك بصنيع ابن المعتز يقول: " ومنها تجاهل العارف كقول قيس بن الملوح الملقب بالمجنون:

بالله يَا ظَبَيَاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا ∴ لَيْلايَ مِنْكُنَّ أمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ

وكقول زهير بن أبي سلمى:

وَمَا أدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي ∴ أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نساءُ

وكقولنا:

أشفارُ حورٍ أم شفارُ بحور ∴ وظلامُ ليلٍ أم سواد شعور

و ...

أظبي صوارم أم ظباء صرايم ∴ برق تبسم أم بروق مباسم

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

ولنا:

أحلم ما أرى منهم ∴ أم الأخوان خوان

وكقولنا في النثر في كلمة لنا ذكرنا فيها أحوال الإخوان وسوء عهدهم:

وصلت ملطفته فلم أدر أكتاب مسطور أم روض ممطور .

ويجوز أن يكون قول دريد بن الصمة من هذا القبيل:

تنادوا فقالوا أردَتِ الخيلُ فارساً ∴ فقلت أعبد الله ذلكم الردى

(١) سورة: سبأ، من الآية [٢٤] .

فتجاهل وهو عارف " [١] .

هذا نص كلام المرغيناني عن تجاهل العارف وقد ذكرته بتمامه لأن أكثر الشواهد التي ذكرها لم يذكرها غيرهُ وبعضها من كلامه شعراً ونثراً.

والمتأمل في كلام المرغيناني السابق يستخلص الآتي:

أولاً: تأثره الواضح بابن المعتز، وأكبر دليل على ذلك أنه ذكر هذا اللون تحت محاسن الكلام، كما صنع ابن المعتز، كما أنه لم يذكر تعريفه أو الفائدة منه، وهذا ما فعله ابن المعتز من قبل، يضاف إلى ذلك وهو الأهم أنه أبقى على تسمية ابن المعتز (تجاهل العارف) تاركاً ما ذهب إليه أبو هلال العسكري (مزج الشك باليقين) وابن رشيق القيرواني (التشكك) .

ثانياً: أضاف المرغيناني بعض الشواهد الشعرية والنثرية وكانت من تأليفه.

ثالثاً: أما الأمر الذي يحسب له فهو أنه ذكر شاهداً من القرآن الكريم، وهذا أمر لم يسبق إليه، ولكنه أبقى على تسمية (تجاهل العارف) وكأنه يرى أن لا حرج في أن يطلق على ما جاء من هذا القبيل في القرآن الكريم كلمة (تجاهل العارف) .

---

(١) المحاسن في النظم والنثر صـ٣١، ٣٢ .

تجاهل العارف عند علماء القرن السادس الهجري

ابن حيدر البغدادي (ت ٥١٧هـ)

اهتم ابن حيدر البغدادي بهذا اللون البديعي فأدخله تحت القسم الثاني من كتابه وهو بلاغة الشعر ونقده فقال [١]: " وأما تجاهل العارف فكقول زهير:

وَمَا أدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي ∴ أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نساءُ

وقول الآخر:

باللهِ يا ظَبيَاتِ القاعِ قُلْنَ لَنَا ∴ ليلايَ منكُنَّ أمْ لَيلى من البَشَرِ

بهذه العبارة المقتضبة جاء حديث ابن حيدر عن تجاهل العارف وأهم ما نلاحظه عليه:

أولاً: أنه لم يعرفه أو يذكر رأيه فيه أو في قيمته البلاغية مع أنه قد سُبق في ذلك بأبي هلال العسكري وابن رشيق القيرواني .

ثانياً: مع أن ابن حيدر قد سبق بتسميتين مخالفتين لتسمية ابن المعتز (تجاهل العارف) إحداهما لأبي هلال العسكري والأخرى لابن رشيق إلاَّ أنه أبى إلاَّ الرجوع إلى تسمية ابن المعتز ولعل السبب في ذلك أن كلًّا من (مزج الشك باليقين) أو (التشكك) لا يعدو أن يكون شرحاً لعبارة (تجاهل العارف) [٢] أو تلخيصا لها.

ثالثاً: يبدو أن ابن حيدر قد خصَّ (تجاهل العارف) بالشعر دون النثر شأنه في

---

(١) قانون البلاغة في نقد النثر والشعر لابن حيدر البغدادي صـ١٣٤، ١٣٥، تحقيق: د/ محسن غياض – ط: مؤسسة دار الرسالة – ط: الثانية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

(٢) المعايير البلاغية في قانون البلاغة لابن حيدر البغدادي للدكتور: حسن إسماعيل عبد الرازق صـ٢٧٢، ط: دار الطباعة المحمدية، ط: الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

ذلك شأن ابن المعتز وابن رشيق، " فالمثالان اللذان ساقهما ابن حيدر يتضمنان تشبيهاً ضمنياً، وقد أراد أول الشاعرين من تشبيهه الهجاء، كما أراد الآخر من تشبيهه التدله في الحب " [١] .

رابعاً: لم يبين ابن حيدر موقفه من تجاهل العارف بالنسبة للقرآن الكريم إذا كان يرى أنه يأتي في القرآن أم لا .

(١) المرجع السابق صـ٢٧٤ .

رشيد الدين الوطواط (ت ٥٧٣هـ) في كتابه:

حدائق السحر في دقائق الشعر

يعد كتاب (حدائق السحر في دقائق الشعر) لرشيد الدين الوطواط [١] من أهم الكتاب التي ألفت في البلاغة الفارسية قال عنه بعض من كتب عن البلاغة الفارسية من المعاصرين: (إجمالا كان حدائق السحر في دقائق الشعر) من أهم النماذج والمصادر لكل من ألّف في الصنائع البديعية باللغة الفارسية) [٢] .

وقد كان منهج رشيد الدين في كتابه (حدائق السحر في دقائق الشعر) أن يبدأ كل مبحث بشرحه ثم يعقبه بالشواهد العربية متلوة بالشواهد الفارسية . سار على هذا المنهج في عرضه لكل الفنون البديعية التي ذكرها، ومنها (تجاهل العارف) موضوع الدراسة، قال: (تجاهل العارف وتكون هذه الصنعة بأن يورد الشاعر أو الكاتب شيئاً في نظمه أو نثره، ثم يقول لا أعلم إن كان هذا الشيء هكذا أو هكذا ؟! فيدعي الجهل به وهو مع ذلك يعلم حقيقته تماماً وهذا الأسلوب موجود في القرآن الكريم ومثاله:

---

(١) هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العمري البلخي المعروف بالوطواط ولد سنة ٤٨٠هـ تقريباً في بلخ، قال عنه ياقوت الحموي: "من نوادر الزمان وعجائبه وأفراد الدهر وغرائبه، أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب، وأسرار النحو والأدب، طار في الآفاق صيته وسار في الأقاليم ذكره ... عرف بالوطواط لضآلة حجم جسمه، وحدة لسانه، وكونه أصلع، توفى سنة ٥٧٣هـ، وقيل: ٥٧٨هـ، ودفن في جرجانية خوارزم، خلَّف الوطواط كتباً كثيرة أشهرها: حدائق السحر ".
ينظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي: ٢٦٣١/٦ – ٢٦٣٦، تحقيق: إحسان عباس، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣م .

(٢) علوم البلاغة عند العرب والفرس (دراسة مقارنة) للدكتور/ إحسان صادق سعيد صـ١٠٠، نشر: المستشارية الثقافية الإيرانية، دمشق، ط: الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

ومثاله من النثر العربي: لا أدري أبدر زاهر أم جبينه وبحر زاخر أم يمينه .. ؟!

ومثاله في الفارسية: فلان آدميست يافرشته .

ومعناه: هل فلان آدمي أو ملاك .

ويقول " قيس المجنون ":

بالله يا ظَبيَاتِ القاعِ قُلْنَ لَنَا ∴ ليلايَ منكُنَّ أمْ لَيلى من البَشَرِ

ويقول زهير:

وما أدْري وسوف إخالُ أدْرِي ∴ أقومُ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

ويقول نصر بن الحسن:

أحُلْم ما أرى منهم ∴ أم الأخوان خوان "(٢)

هذا هو أكثر ما قاله رشيد الدين الوطواط عن (تجاهل العارف)، وأول ما يطالعنا فيه هو شرحه وتوضيحه لمعنى هذا المصطلح، وإن كان كلامه لا يعدو أن يكون شرحاً وتوضيحاً لتعريف أبي هلال السابق، كما أنه صرَّح في تعريفه بأن (تجاهل العارف) يكون في النظم والنثر وهو في هذا مسبوق بأبي هلال أيضاً، فقد ذكر له مثالاً من النثر – تناقله البلاغيون بعده – وأمثلة من النظم وقد سبق الكلام عن ذلك .

ثانياً: يصرح الوطواط بأن هذا الأسلوب موجود في القرآن الكريم، وهو في هذا

---

(١) سورة: سبأ، من الآية [٢٤] .

(٢) حدائق السحر في دقائق الشعر صـ١٥٨، ترجمه عن الفارسية: إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٤٥م .

مسبوق بمن تأثر به ونقل عنه كثيراً وهو نصر بن الحسن المرغيناني، فالآية التي ذكرها الوطواط وتناقلها البلاغيون بعده، هي نفس الآية التي ذكرها المرغيناني (نصر بن الحسن) وعلى هذا لا أكون مبالغاً حين أقول إن المرغيناني هو أول من أشار إلى أن (تجاهل العارف) يأتي في القرآن الكريم .

ثالثاً: إبقاء الوطواط على عبارة (تجاهل العارف) وإطلاق ذلك على ما جاء من هذا القبيل في القرآن الكريم سيراً على نهج من تأثر به ونقل عنه وهو المرغيناني.

أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ):

جمع أسامة بن منقذ في كتابه: (البديع في نقد الشعر) ما تفرق في كتب المتقدمين عليه المصنفة في نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه .

وقد تكوَّن كتابه من خمسة وتسعين باباً ذكر فيها جملة من أبواب البلاغة منها (تجاهل العارف) موضوع البحث والدراسة .

وإذا كان أسامة بن منقذ قد نصَّ في مقدمة كتاب البديع على الكتب التي اعتمد عليها، ومنها كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، فإنه قد صدَّر حديثه عن تجاهل العارف بكلام نسبه لأبي هلال قال: (باب التجاهل قال صاحب الصناعتين: هو يقول الشاعر لا أدري أو يستفهم ببعض حروف الاستفهام كقول العرجي:

بالله يا ظَبيَاتِ القاعِ قُلْنَ لَنَا ∴ ليلايَ منكُنَّ أمْ لَيلى من البَشَرِ

وله [١]:

أيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلاجُلٍ ∴ وبَيْنَ النَّقَا آأنتِ أمْ أمُّ سَالِمِ

وقال صاحب الصناعتين: كتب إليَّ بعض الأدباء سمعتُ بورود كتابك فاستفزني الفرح قبل رؤيته، وهز عطفِيَّ المرحُ أمام مشاهدته، فلا أدري أسمعْتُ بورود كتاب أم ظفرْتُ برجوع شباب، ولم أدر ما رأيتُ أخط مسطورُ أم روض ممطور، وكلام منثور أم وشى منشور، ولم أدر ما أبصرت في أثنائه أبياتُ شعر أم عقُود دُرٍّ ... السلامُ [٢] .

---

(١) البيت ليس للعرجي كما نسب أسامة بن منقذ وإنما لذي الرمة وهو في ديوانه صـ٥١١، شرح وتعليق: زهير فتح الله، ط: الأولى دار صادر، بيروت ١٩٩٥م .

(٢) في الصناعتين نسب أبو هلال هذا الكلام إلى نفسه كتبه إلى بعض أهل الأدب، وهنا يذكر أسامة أن بعض الأدباء أرسل به إلى أبي هلال .

... ومنه لقيس بن الملوَّح العُذْري مجنون لَيْلى:

يقولــونَ: ليلَــى بــالعراقِ مريضــةٌ ∴ فأقبلتُ من أرضِي إليها أعُودُها

وأقْسِــمُ مــا أدرِي إذا أنــا جئتُهــا ∴ أأبْرِئُهــا مــن دائهــا أم أزِيــدُها "(١)

والشواهد التي ذكرها أسامة بن منقذ لتجاهل العارف يضيق المقام عــن ذكرها هنا، ولكن من خلال التأمل والنظر فيما كتبه يظهر الآتي:

أولاً: رجوع أسامة إلى عبارة (تجاهل العارف) .

لعله من الوضوح بمكان تأثر أسامة بن منقذ بأبي هلال العســكري فــي تناوله لتجاهل العارف، والدليل علَى ذلك أنه صدَّر كلامه بما نقله عن أبي هــلال وكذلك الشاهد النثري الذي ذكره، ومع هذا فإنه رجع إلى عبارة (تجاهل العارف) – كما رجع إليها المرغيناني وابن حيدر البغدادي من قبل – ولعل السبب في ذلك هو ما قلته سابقاً من أن عبارة مزج الشك باليقين لا تعدو أن تكون شرحاً لعبارة (تجاهل العارف) .

ثانياً: أما عن التعريف الذي صدَّر به أسامة حديثه عن (تجاهل العارف) ونســبه إلى أبي هلال فواضح فيه عدم الدقة في النقل فتعريف أبي هلال هو: " إخراج ما يعرف صحتُه مُخْرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً " وما ذكره أسامة ونسبه لأبي هلال هو " أن يقول الشاعر لا أدري أو يستفهم ببعض حروف الاستفهام " .

ومما لا شك فيه أن عبارة أبي هلال أدقّ وأدخل في باب (تجاهل العارف) من عبارة أسامة .

يضاف إلى ذلك أن التعريف الذي ذكره ونسبه لأبي هلال يخص تجاهــل

---

(١) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ صـــ٩٣، وما بعدها .
تحقيق: أحمد بدوي، د/ حامد عبد المجيد، ط: مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٠هـــ ١٩٦٠م.

العارف بالشعر دون النثر والواقع أن أبا هلال لم يقل ذلك والدليل على هذا هو ذلك المثال النثري الذي ذكره في كتابه والذي نقله عنه أسامة بعد ذلك، وبهذا يتضح لنا أنه حمَّل الرجل ما لم يقله .

ثالثاً: لم يشر أسامة إلى القيمة البلاغية لهذا اللون البديعي ولا إلى الفائدة منه كما فعل من نقل عنه وهو أبو هلال، كذلك لم يشر إلى وجه الحسن في الشواهد التي ذكرها مكتفياً بسردها وكثرتها .

وإن كنت أرى أن اكثاره من الشواهد يشير إشارة كاملة إلى القيمة البلاغية لهذا اللون في نظره ولولا ذلك ما أكثر من الشواهد .

تجاهل العارف عند علماء القرن السابع الهجري:

زخر القرن السابع الهجري بجمع من العلماء كان لهم أثرهم البارز ودورهم المتميز في إرثاء قواعد البلاغة العربية، وكان من أشهرهم العلامة فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، وأبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، وضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، وعبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني (ت ٦٥١هـ)، وابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، وبدر الدين ابن مالك (ت ٦٨٦هـ) وغيرهم .

ولم يكن تناول هؤلاء لتجاهل العارف على درجة واحدة، فمنهم من كان له جهد يستحق الوقوف عنه، ومنهم من عرضه عرضاً سريعاً موجزاً لا طائل تحته.

فلو عرجتَ على أقدمهم في هذا العصر وهو العلامة فخر الدين وهو الذي عاش في أواخر القرن السادس وأوائل السابع – وماذا قال عن تجاهل العارف لا تجد شيئاً يستحق الوقوف عنده فلم يذكر تعريفه أو قيمته البلاغية، وإنما اكتفى بذكر شاهدين لا ثالث لهما؛ لأنه كان ملتزما بتلخيص كتابي عبد القاهر، ولم يعرض الإمام لهذا الفن .

أولهما: من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

والثاني: قول المتنبي:

أريقُك أمْ ماءُ الغَمَامَة أمْ خَمْرُ ∴ بِفِيَّ بَرُود وهو في كَبِدِي جَمْرُ (٢)

---

(١) سورة: سبأ، من الآية [٢٤] .

(٢) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز صـ٢٩٣، ٢٩٤، تحقيق: الدكتور/ بكري شيخ أمين، ط: دار العلم للملايين، بيروت، ط: الأولى ١٩٨٥م .

وهو مسبوق بهما أما الآية فقد ذكرها المرغيناني، وبعده رشيد الدين الوطواط، أما بيت المتنبي فقد ذكره أبو هلال، وتناقله البلاغيون بعده .

أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت ٦٢٦هـ) في كتابه مفتاح العلوم:

قسَّم السكاكي كتابه مفتاح العلوم ثلاثة أقسام، خصَّ القسم الأول منها بدراسة علم الصرف، والقسم الثاني بدراسة النحو، والثالث بدراسة البلاغة، وفي القسم الأخير درس السكاكي علمي المعاني والبيان، ثم درس علم البديع وسماه وجوه تحسين الكلام .

في القسم الخاص بعلم المعاني أشار السكاكي إلى هذا اللون البديعي (تجاهل العارف) في معرض حديثه عن تنكير المسند إليه فذكر أن تنكير المسند إليه يكون للإفراد شخصاً أو نوعاً، أو لأن المقام غير صالح للتعريف، وقد يأتي الأخير عن طريق التجاهل .

قال: " وأما الحالة التي تقتضي تنكيره فهي إذا كان المقام للإفراد شخصاً أو نوعاً كقولك: جاءني رجل أي فرد من أشخاص الرجال، وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء ﴾ (١)، أي من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، أو من ماء مخصوص، وهي النطفة، أو كان المقام غير صالح للتعريف: إما لأنك لا تعرف منه حقيقة إلاَّ ذلك القدر وهو أنه رجل، أو تتجاهل وترى أنك لا تعرف إلاَّ جنسه كما إذا سمعت شيئاً في اعتقادك فاسداً عمن هو مفتر كذاب وأردت أن تظهر لأصحاب لك سوء اعتقادك به، قلت: هل لكم في حيوان على صورة إنسان يقول كيت وكيت ؟ متفادياً أن تقول في فلان فتسميه كأنك لست تعرف منه ولا أصحابك إلا تلك الصورة، ولعله عندكم أشهر من الشمس وعليه ما يحكيه (ﷺ)

(١) سورة: النور، من الآية [٤٥] .

عن الكفار في حق النبي (ﷺ) ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [١] كأن لم يكونوا يعرفون منه إلاَّ أنه رجل ماء، وباب التجاهل في البلاغة وإلى سحرها وإن شئت فانظر لفظ (كأن) في قول الخارجية:

أيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً ∴ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ على ابْنِ طَرِيفِ

ماذا ترى ؟ أو الاستخبار في قول علاَّم الغيوب ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [٢] .

متضمناً للتوبيخ لهم على تمريضهم ورخاوة عقدهم في الإيمان، ناعياً عليهم أن يتوقع من أمثالهم إن تولوا أمور الناس وتأمَّروا عليهم أن يفسدوا في الأرض ويقطعوا أرحامهم تناحراً في الملك وتهالكاً على الدنيا ... " [٣] .

والذين ينبغي أن أنبه إليه – قبل أن أذكر ما قاله السكاكي عن (تجاهل العارف) عند ذكره له في المحسنات المعنوية – وهو أن السكاكي هنا أطلق عبارة التجاهل – التي عدل عنها بعد ذلك – على بعض الآيات القرآنية .

كقول القرآن الكريم – حكاية لحال الكفار – عن النبي (ﷺ): ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ... ﴾ أو الاستخبار في قول الله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ... ﴾ .

وقد أقرَّ البلاغيون هاتين الآيتين في باب التجاهل متأثرين في ذلك بالسكاكي، فالآية الأولى ذكرها الخطيب القزويني[٤] تحت غرض التحقير وكذلك

---

(١) سورة: سبأ، من الآية [٧] .

(٢) سورة: محمد، الآية [٢٢] .

(٣) مفتاح العلوم صـ١٩١، ١٩٢، تحقيق: نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٤) الإيضاح: ٦٨/٤ مع البغية، طبع ونشر: مكتبة الآداب .

الطيبي[١]، والسبكي[٢]، والبابرتي[٣]، والآية الثانية ذكرها الطيبي تحت غرض الاستدراج [٤] .

تعرض السكاكي لهذا اللون من الكلام عند دراسته للمحسنات المعنوية (في علم البديع) ورأى أن يعدل عن عبارة التجاهل – التي قالها البلاغيون وأقَرَّها هو إلى عبارة أخرى وهي (سوق المعلوم مساق غيره) فقال: " ومنه [يريد البديع المعنوي] (سوق المعلوم مساق غيره ولا أحب تسميته بالتجاهل كقوله:

أذاك أم نمش بالوشى أكرعه ∴ أذاك أم خاضب بالسبي مرتعه

وقولها:

أيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورقاً ∴ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ على ابْنِ طَرِيفِ

وقوله (ﷺ): ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٥].

هذا هو كلام السكاكي عن (تجاهل العارف) كمحسن بديعي، وقد عدل عن عبارة (تجاهل العارف) إلى (سوق المعلوم مساق غيره) .

وصنيع السكاكي هذا يحرك في الأذهان عدَّه تساؤلات أهمها:

أولاً: ما السبب الذي جعل السكاكي يعدل عن عبارة (تجاهل العارف) إلى (سوق

---

(١) ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان صـ٢٩٤، تحقيق: الدكتور/ هادي عطية مطر، ط: مكتبة النهضة المصرية، ط: الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٢) ينظر: عروس الأفراح: ٤٠٦/٤ (ضمن شروح التلخيص)، ط: دار السرور.

(٣) ينظر: شرح التلخيص لأكمل الدين البابرتي صـ٦٦٢، تحقيق: محمد مصطفى رمضان صوفية، ط: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ط: الأولى ١٣٩٢هـ ١٩٨٣م.

(٤) ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان صـ٢٩٤ .

(٥) مفتاح العلوم صـ٤٢٧، ٤٢٨، تحقيق: نعيم زرزور .

المعلوم مساق غيره) ؟ مع أن شواهده في (سوق المعلوم) لا تختلف كثيراً عن شواهده في (التجاهل) .

ثانياً: إلى أي مدى حقق السكاكي ما أرد ؟

ثالثاً: ما موقف البلاغيين بعده من هذه التسمية ؟

وللإجابة عن التساؤل الأول أقول:

لعل السبب في عدول السكاكي عن عبارة (تجاهل العارف) إلى (سوق المعلوم مساق غيره) هو مجيء هذا اللون في كتاب الله تعالى، وأنه كره أن ينسب التجاهل إلى الله .

وهذه علَّة تلتمس للسكاكي لأنه لم يصرح بها فكل ما قاله (ولا أحب تسميته بالتجاهل) واستشهد عقب هذا العبارة ببيتين من الشعر وآية من القرآن الكريم . وإن كنت قد وجدت بعض البلاغيين الذين أتوا بعده ينسبون له علَّة عدوله عن (تجاهل العارف)

فسعد الدين التفتازاني يقول في كتابه المطول: " ومنه أي من المعنوي (تجاهل العارف) وهو كما سماه السكاكي (سوق المعلوم مساق غيره) لنكتة وقال: لا أحب تسميته بالتجاهل لوروده في كلام الله تعالى " [١] .

وأكمل الدين البابرتي يقول: " تأدب صاحب المفتاح (/) فقال: ولا أحب تسميته بالتجاهل لوروده في كلام رب العزة، بل سماه (سوق المعلوم مساق غيره) أي غير المعلوم " [٢] .

وكذلك ابن يعقوب المغربي الذي يذكر سبب تفضيل عبارة السكاكي (سوق

---

(١) المطول صـ٤٤٣، مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ .

(٢) شرح التلخيص صـ٦٥٩ .

المعلوم) على عبارة (تجاهل العارف) فيقول: " والعبارة الثانية أفضل لوجهين . أحدهما: ما أشار إليه السكاكي من أنه يقع في قول الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ (١) قال: فلا أحب أن يقال في " الكلام المنسوب إلى الله تجاهل العارف يعني بخلاف غيره " (٢) .

هذا ويلتمس العلامة العصام علَّة ثانية لعدول السكاكي عن (تجاهل العارف) إلى (سوق المعلوم مساق غيره) وهي أن عبارة (تجاهل العارف) تفيد أنه صفة للمتكلم دون الكلام، والواقع أنه صفة للكلام سمي باسم ما هو صفة المتكلم به، ولما كان الأمر كذلك فعبارة (سوق المعلوم مساق غيره) هي الأنسب للإطلاق على مثل هذا اللون من الكلام لا عبارة (تجاهل العارف) .

قال العصام: (ولما كان (تجاهل العارف) صفة المتكلم دون الكلام حتى يكون من محسناته، ومع ذلك يخص بمقتضى الأدب بما سوى كلامه تعالى قال لدفع كلا التوهمين: (وهو كما سماه السكاكي سوق المعلوم مساق غيره) (٣) فهو صفة للكلام، سمي باسم ما هو صفة المتكلم به، ولا يخص بما سوى كلامه تعالى بل التسمية بتجاهل العارف تسمية بالنظر إلى الأعم الأغلب) (٤) .

وللإجابة عن التساؤل الثاني أقول:

إن السكاكي كره أن ينسب عبارة (التجاهل) إلى الله فعدل عنها إلى (سوق

---

(١) سورة: طه، آية [١٧] .

(٢) مواهب الفتاح: ٤٠٣/٤ (ضمن شروح التلخيص)، ط: دار السرور .

(٣) القائل هو الخطيب القزوينى. ينظر: التلخيص في علوم البلاغة للخطيب القزويني صـ٣٨٥، ٣٨٦، ضبط وشرح: الأستاذ/ عبد الرحمن البرقوقي، ط: دار الفكر العربي، من دون تاريخ .

(٤) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: ٤٤٧/٢، تحقيق: الدكتور/ عبد الحميد هنداوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م .

المعلوم مساق غيره)، والمدقق في العبارتين لا يجد فارقاً يذكر بينهما من حيث المعنى ففي كل عرض لأمر يدركه المتكلم ويعلمه ولكنه يخرجه في صورة المجهول وغير المدرك لغرض يحرص المتكلم على إبرازه .

ولكن ثمة فارقاً يذكر وهو: إخراج العبارة مستورة القصد مغطاة بما لا يجهر بنسبة التجاهل إلى الله – تعالى – وهو فارق معتبر لأن التأدب مع كلام رب العزة مقصد سامٍ وإن كان غير أبى يعقوب لم يرد فى خاطره ما تنبه إليه أبو يعقوب .

لذا تجد ابن يعقوب المغربي يفضل عبارة (سوق المعلوم مساق غيره) على عبارة (تجاهل العارف) ويعلل ذلك بأنها أقرب إلى الأدب يقول: " والعبارة الثانية أفضل لوجهين أحدهما ما أشار إليه السكاكي من أنه يقع في قول الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ قال فلا أحب أن يقال في الكلام المنسوب إلى الله تعالى تجاهل العارف، يعني بخلاف غير هذه العبارة فإنها أقرب إلى الأدب ولفظ الغير فيها وإن كان عبارة عن المجهول لكن دلالته أستر لعمومه " [(١)] .

وكذلك الدسوقي الذي يقول: " وتسمية الكلام المنسوب لله بتجاهل العارف فيه إساءة أدب بخلاف تسميته بسوق المعلوم مساق غيره فإنه أقرب إلى الأدب من الأولى، وإن كان الغير فيها عبارة عن المجهول لكن دلالته أستر لعمومه"[(٢)].

وللإجابة عن التساؤل الثالث أقول:

على الرغم من أن السكاكي لم يرتض عبارة (تجاهل العارف) التي ذهب إليها أكثر البلاغيين سيراً على نهج ابن المعتز، ورأى أن الأنسب أن يطلق على

---

(١) مواهب الفتاح: ٤٠٣/٤ (ضمن شروح التلخيص) .
(٢) حاشية الدسوقي: ٤٠٣/٤ (ضمن شروح التلخيص) .

هذا اللون من الكلام تأدباً؛ لأنه ورد فى القرآن (سوق المعلوم مساق غيره) إلاَّ أن أكثر البلاغيين الذين جاءوا بعده أقرّوا تسمية ابن المعتز وبعضهم استحسن تسمية ابن رشيق وهي (التشكك) كالعلامة ضياء الدين بن الأثير الذي يعد أقرب البلاغيين والنقاد عهداً بالسكاكي .

وقد جاءت عبارة تجاهل العارف عند جميع البلاغيين بعد ذلك منهم على سبيل المثال لا الحصر: ابن أبي الأصبع في كتابيه (تحرير التحبير وبديع القرآن)، والزنجاني، والخطيب القزويني في كتابيه (التلخيص والإيضاح)، والطيبي، والعلوي، وشراح التخليص .

وسيأتي الحديث عن هؤلاء العلماء .

بقي لى بعد ذلك أن أقول:

أولاً: ليس السكاكي بأول من استشهد لتجاهل العارف بشواهد قرآنية فقد سُبق في هذا بالمرغيناني، ورشيد الدين الوطواط، وفخر الدين الرازي – وقد سبق تفصيل القول في ذلك فى معرض الحديث عن المرغيناني، والوطواط، وفخر الدين الرازي.

لكن إذا كان هؤلاء قد أبقوا على مصطلح ابن المعتز (تجاهل العارف) ورأوا ألَّا غضاضة في أن يطلق على ما جاء في القرآن الكريم من هذا القبيل (تجاهل العارف) فإن السكاكي لم يرتض هذه التسمية وكره نسبتها إلى كلام الله تعالى، وهو محق في ذلك .

ثانياً: حديث السكاكي عن هذا المصطلح جاء سريعاً للغاية، فلم يعرفه أو يذكر الفائدة منه، أو النكات البلاغية التي يأتي من أجلها الكلام بهذه الطريقة، وإن كنت أرى أن هذا هو صنيع السكاكي في كل المحسنات البديعية التي ذكرها وليس في تجاهل العارف فقط .

المبحث الثاني

تجاهل العارف عند المتأخرين بعد السكاكي

ذكرت سابقاً: أن عبارة (تجاهل العارف) التي أطلقها ابن المعتز على هذا اللون من الكلام حتى وإن عدل بعض البلاغيين عنها كأبي هلال العسكري وابن رشيق إلاَّ أنهم لم يحددوا موقفهم منها قبولاً أو رفضاً .

أما العلامة السكاكي فقد كان له رأي واضح وصريح، فلم تكن عبارة (تجاهل العارف) عنده موضع رضا وتسليم، وإنما رأى أن الأنسب أن يعدل عنها إلى (سوق المعلوم مساق غيره) وذلك لورود هذا اللون من الكلام كثيراً في القرآن الكريم .

وفي هذا المبحث ألقى الضوء على جهود البلاغيين بعد السكاكي، وموقفهم من تسمية السكاكي (سوق المعلوم مساق غيره) وهل التزموا بها أم أنهم أبقوا على عبارة ابن المعتز (تجاهل العارف) ؟

في الواقع لا أكون مبالغاً حينما أقول: إن جلَّ البلاغيين الذين أتوا بعد السكاكي إلى يومنا هذا لم يعدلوا عن مصطلح ابن المعتز، حتى من استحسن منهم ما ذهب إليه السكاكي كابن يعقوب المغربي تراه يبقي على ما قاله ابن المعتز، سيراً على منهج الخطيب القزويني، ومن تلاه من شراح التلخيص .

ولم يخرج عنهم – فيما أعلم – إلاَّ العلامة ضياء الدين ابن الأثير في كتابه (كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب).

ومما يجب التنبيه عليه في هذا المقام أني في المبحث القادم لا أقف عند جميع البلاغيين الذين جاءوا بعد السكاكي، وإنما أذكر الذين لهم أثر واضح وإضافات تحسب لهم .

ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ):

تعرض أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف بضياء الدين ابن الأثير الجزري لهذا اللون البديعي في كتابه (كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب) وأطلق عليه اسم (التشكيك) وأشار إلى قيمته البلاغية وفائدته في الكلام، متأثراً في كل ذلك بابن رشيق ناقلاً عنه أكثر كلامه .

قال: (باب التشكيك ويسمى التجاهل، وهو من مُلَحِ الشعر وطُرِق الكلام، وله في النفس حلاوة وحسن موقع بخلاف ما للغلِّو . وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يكاد يفرق بينهما ولا يميز أحدهما عن الآخر) (١) .

ثم ذكر ابن الأثير بعض الشواهد الشعرية والنثرية، وهي بجملتها مأخوذة من العمدة لابن رشيق، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (٢) .

وقد ظهر تأثر ابن الأثير بالعلامة ابن رشيق في عدة أمور أهمها:

أولاً: رجوعه إلى عبارة (التشكك) التي ارتضاها ابن رشيق فإذا كان السكاكي قد عدل عن عبارة (تجاهل العارف) إلى (سوق المعلوم مساق غيره) فإن معاصره ابن الأثير قد ترك هذا وذاك مرتضياً ما ذهب إليه ابن رشيق .

ثانياً: لم يعرف ابن الأثير (التشكيك) وإنما اكتفى بذكر القيمة البلاغية له وهذا ما صرَّح به ابن رشيق من قبل .

---

(١) ينظر: كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب لابن الأثير صـ١٩٩، تحقيق: د/ النبوي عبد الواحد شعلان، ط: الزهراء للإعلام العربي، ط: الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٤م .
وكذلك تحقيق الأفاضل: د/ نوري حمودي القيس، ودكتور/ حاتم صالح الضامن، والأستاذ: هلال ناجي صـ١٧٢، منشورات جامعة الموصل، بغداد .

(٢) المصدر السابق صـ١٩٩ – ٢٠٠ تحقيق: د/ النبوي عبد الواحد شعلان صـ١٧٢، وصـ ١٧٢، تحقيق: د/ نوري حمودي، ود/ حاتم صالح الضامن . والأستاذ/ هلال ناجي.

ثالثاً: أشار ابن الأثير إلى فائدة هذا اللون البلاغية، وقصرها على قرب الشبه بين الأمرين، وهو في هذا يخص (التشكيك) بالتشبيه فقط شأنه في ذلك شـــأن من تأثر به وهو ابن رشيق .

كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزَّمْلَكَاني (ت ٦٥١هـ) [١]

في كتابه: التبيان في علم البيان المُطْلِعْ على إعجاز القرآن

رتب ابن الزملكاني كتابه التبيان على سوابق ومقاصد ولواحق والمقاصد عنده ثلاثة أركان .

الركن الأول: في الدلالات الإفرادية، وشمل الكلام في الحقيقة والمجاز وأقسامه من كناية واستعارة وتمثيل ..

والركن الثاني في مراعاة أحوال التأليف وقد قسّمه إلى فنون ...

والركن الثالث: في معرفة أحوال اللفظ وأسماء أصنافه في علم البديع، وفيه مقدمة وأصناف، أما المقدمة فتشتمل على بحث كلي يتعلق بمخارج الحروف، وأما الأصناف فتشتمل على ستة وعشرين صنفاً من فنون البديع كان من بينها (تجاهل العارف)، الذي هو موضوع هذه الدراسة، قال: " الصنف الرابع والعشرون: التجاهل، وهو أن تسأل عن شيء تعرفه موهماً أنك لا تعرفه، وأنه مما خالجك فيه الشك لقوّة شبه حصل بين المذكورين. منه قوله:

أيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءَ بَيْنَ جُلاجِلٍ ∴ وبَيْنَ النَّقَا آأنتِ أمْ أمُّ سَالِمِ

جهَّل نفسه حتى لا يفرق بين ظبية الوحش وبين أم سالم في الصورة، وأوهم أنه أشكل عليه المسمى باسم الظبية على وجه الحقيقة ولا يدري أيستعير

---

(١) هو: كمال الدين عبد الواحد عبد الكريم بن خلف الأنصاري السماكي الدمشقي الشافعي الزملكاني نسبة إلى زَمْلكان قرية بغوطة دمشق، ويقال له: ابن خطيب زملكا أديب من القضاة له شعر حسن، ولي قضاء صرخد، ودرس مدَّة في بعلبك وتوفى بدمشق، له مؤلفات كثيرة أهمها: التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، المفيد من إعراب القرآن المجيد، ورسالة في الخصائص النبوية.
ـ [ينظر: الأعلام للزركلي: ١٧٦/٤، ط: دار العلم للملايين، بيروت، ط: الثانية عشرة ١٩٩٧م، والتبيان في علم البيان المُطْلِع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني تحقيق: د/ أحمد مطلوب، الدكتورة/ خديجة الحديثي صـ١٠ – ١٣ مقدمة المحققين].

من الوحشية لأم سالم أم من أم سالم للوحشية ... " [١] .

من تعريف ابن الزملكاني السابق لـ (تجاهل العارف) وشرحه لبيت ذي الرمة: أيا ظبية الوعاء ...

أقول: إنه يرى أن التجاهل لا يتحقق إلاَّ إذا كان هناك قوّة شبه بين المشبه والمشبه به حتى يظهر المتكلم أنه لا يستطيع أن يفرق بينهما، وعند ذلك يُخرج سؤاله في صورة المتشكك، والواقع أنه يعلم تمام العلم، وهو بهذا يخص تجاهل العارف بالتشبيه فقط .

وأرى أنه متأثر في هذا بما ذهب إليه ابن رشيق، وتبعه فيه ضياء الدين ابن الأثير، فقد نصَّا على أن الفائدة من خروج الكلام بصورة التشكيك هي الدلالة على قرب الشبهين، حتى لا يفرق بينهما ولا يميز أحدهما من الآخر[٢] وأن ابن الزملكاني أخذ هذه العبارة وبنى عليها تعريفه، حتى وإن أبقى على مصطلح التجاهل كما سماه ابن المعتز ولم يسمه التشكك ما صنع ابن رشيق وتبعه فيه ابن الأثير .

حديث الزملكاني عن (تجاهل العارف) جاء سريعاً وموجزاً للغاية كما هو الحال الشأن عند معاصريه الرازي والسكاكي إلاَّ أن الذي يجب التنبيه عليه والوقوف عنده هو أن الزملكاني – المعاصر للسكاكي – أبقى على عبارة (تجاهل العارف) ولم يشر لا من قريب أو بعيد إلى تسمية معاصره السكاكي، ولم يبن موقفه منها .

ولا عجب في هذا فهذا هو الحال والشأن عند معظم البلاغيين منذ ابن الزملكاني حتى يومنا هذا .

---

(١) التبيان في علم البيان المُطْلع على إعجاز القرآن صـ١٨٨، ١٨٩ تحقيق: د/ أحمد مطلوب والدكتورة/خديجة الحديثي، مطبعة: العاني، بغداد، ط: الأولى ١٣٨٢هـ ١٩٦٤م .

(٢) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٦٦/٢، وكفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب لابن الأثير صـ١٩٩ .

ابن ابي الأصبع المصري (ت ٦٥٤هـ):

ألَّف ابن أبي الأصبع أولاً كتابه تحرير التحبير وذكر فيه من أنواع البديع (مائة وخمسة وعشرين نوعاً) ثم أفرد منه كتابه: (بديع القرآن وذكر فيه (مائة وتسعة أنواع) تاركاً البقية لأنه لم يجد لها أمثلة من القرآن الكريم [١] .

ذكر ابن أبي الإصبع في كتابه (بديع القرآن) الألوان البديعية المختصة بالقرآن فقط، والتزم فيها الاستشهاد بالقرآن الكريم إلاَّ في بابي (جمع المختلفة والمؤتلفة) (وحسن الاتباع)، والتمس لنفسه العذر في ذلك وبين السبب الذي جعله يخالف شرطه وينقض عهده الذي ألزم به نفسه فقال في باب (جمع المختلفة والمؤتلفة) " وهذا الباب مما يحتاج فيه إلى التمثيل بالشعر ليعلم حين يؤتى فيه بآي القرآن حقيقة معنى الباب في القرآن لما يوضح الشعر من معناه " [٢] .

وهذا ما تعلل به أيضاً عند كلامه عن (حسن الاتباع) .

كما أنه ذكر في (بديع القرآن) أنواعاً بديعية لم يذكرها في (تحرير التحبير) " ولعل السر في ذلك هو تأليف (تحرير التحبير) أولاً ثم إفراد (بديع القرآن) منه، فظهرت له هذه الأنواع بعد الدراسة والبحث عن أنواع البديع، فعثر على أمثلة لهذه الأنواع فذكرها " [٣] .

والناظر إلى موضوع الدراسة (تجاهل العارف) يجد أن ابن أبي الإصبع ذكره في (تحرير التحبير)، وذكره أيضاً في (بديع القرآن) وفي الكتابين عرَّفه وأشار إلى الأغراض البلاغية التي يأتي من أجلها .

---

(١) بديع القرآن صـ١٢٧، تحقيق: الدكتور/ حفني شرف، ط: دار نهضة مصر .
(٢) المرجع السابق صـ٢١٠ .
(٣) المرجع السابق صـ٩٣، مقدمة المحقق الدكتور/ حفني شرف .

وقد اتحدت شواهد في الكتابين إلاَّ أنه خصَّ (بديع القرآن) بالقرآن فقط وذكر في (تحرير التحبير) شواهد شعرية وقرآنية .

تناول ابن أبى الإصبع (تجاهل العارف) في كتابيه بطريقة لم أجدها عند غيره من السابقين عليه ولذلك وجدت من الخير قبل مناقشة كلامه أن أذكرها .

قال في تحرير التحبير: " باب تجاهل العارف وقد سمَّاه مَنْ بعد ابن المعتز الإعنات، وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه به ليخرج كلامه مخرج المدح، أو الذمّ، أو ليدل على شدّة التدله في الحب، أو لقصد التعجب أو التقرير أو التوبيخ، وهو على قسمين: قسم يكون الاستفهام فيه عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع وقد ينطق بأحد الشيئين ويسكت عن الآخر لدلالة الحال عليه .

وهو على قسمين: موجب ومنفي .

وقد جاء منه في الكتاب العزيز مالا يلحق سبقاً كقوله تعالى: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ (١) فهذا خارج مخرج التعجب، وقوله سبحانه: ﴿ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء ﴾ (٢) وهذا خارج مخرج التوبيخ، وقوله (ﷺ): ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾(٤) وهذان الموضعان خرجا مخرج التقدير .

وأما ما جاء منه للذم فكقول زهير بن أبي سلمى:

وما أدْري وسوف إخالُ أدْرِي ∴ أقومُ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

---

(١) سورة: القمر، من الآية [٢٤] .
(٢) سورة: هود، من الآية [٨٧] .
(٣) سورة: المائدة، من الآية [١١٦] .
(٤) سورة: هود، من الآية [٦٢] .

وأما ما دل على التدله في الحب فكقول العرجي:

بالله يا ظَبيَاتِ القاعِ قُلْنَ لَنَا ∴ ليلايَ منكُنَّ أمْ لَيلى من البَشَرِ

وكل ما أوردناه من الآيات في هذا الباب مما نطق فيه بأحد الأمرين لدلالة القرينة على الآخر، وبيت المدح من القسم الأول، والبيتان الأخيران من القسم الآخر، والله أعلم وهذا كله مما جاء من القسم الأول .

ومما جاء من القسم الثاني في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[١] فحصل في فصاحة النسوة من المبالغة والتهذيب ما لم يقع في فصاحة العرب حيث شبّهوا كلَّ من راعهم حسنه بالجن وتبعهم المتنبي فقال [٢]:

لِجِنِّيَّةٍ أمْ غادَةٍ رُفِعَ السَّجْفُ ...." [٣] .

هذا هو نص كلام ابن أبي الإصبع عن تجاهل العارف في كتابه: (تحرير التحبير) وهو نفس كلامه في (بديع القرآن) [٤] .

وكلام ابن أبي الإصبع يحتاج إلى مناقشة في عدة أمور منها:

أولاً: أنه نسب إلى البلاغيين بعد ابن المعتز أنهم يسمون هذا اللون من البديع

---

(١) سورة: يوسف، من الآية [٣١] .

(٢) مطلع قصيدة للمتنبي في مدح أبي الفرج أحمد بن الحسين القاضي المالكي، وتمام البيت: لِوَحشِيةً ؟ لا ما لِوَحْشِيَّةٍ شَنْفُ .

ـ ينظر : ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى: بالتبيان في شرح الديوان: ١٤٧/٢، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، ط : دار المعرفة، بيروت، لبنان، من دون تاريخ .

(٣) تحرير التحبير صـ١٣٥ – ١٣٧، تحقيق: الدكتور/ حنفي شرف، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٤) ينظر: بديع القرآن صـ٥٠، ٥١، تحقيق: الدكتور/ حنفي شرف .

(الإعنات) ولم يحدد صاحب التسمية .

وما ذهب إليه ابن أبي الإصبع لا أساس له من الصحة فلم أر فيما وقع تحت يديَّ من كتب البلاغة من يسمي هذا اللون البديعي الإعنات ولقد استحسنت ما رد به الدكتور/ حفني شرف على ابن أبي الإصبع حين قال: " لم يسمه أحد الإعنات وإنما الإعنات شيء آخر أخطأ فيه المؤلف وسماه عتاب المرء نفسه"(١).

ثانياً: الناظر فيما كتبه ابن أبي الإصبع يجد أنه يقسّم (تجاهل العارف) قسمين، وكل قسم من هذين القسمين إما أن يكون موجباً وإما أن يكون منفياً .

والحق أن كلام ابن أبي الإصبع عن (تجاهل العارف) جاء غامضاً للغاية، فالقارئ لكلامه قراءة سريعة يرى أنه ذكر قسماً واحداً وهو الذي يكون الاستفهام فيه عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع، وقد ينطق بأحد الشيئين ويسكت عن الآخر لدلالة الحال عليه، وأنه ترك القسم الثاني، وهذا ما وقر في ذهني أول الأمر، ولكن بعد تأمل وتطبيق للقسمة التي ذكرها على الشواهد التي أوردها تبين لي:

أن قوله: " قسم يكون الاستفهام عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع " هذا هو القسم الأول .

أما القسم الثاني فهو الذي يكون الاستفهام فيه عن شيئين، وللمتكلم أن ينطق بأحدهما ويسكت عن الآخر لدلالة الحال عليه .

وكل واحد من هذين القسمين إما موجب وإما منفي .

ومما جاء تحت القسم الأول الذي يكون الاستفهام فيه عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع، وهو من القسم الموجب قوله تعالى: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ

(١) ينظر: تحرير التحبير صـ١٣٥، وبديع القرآن صـ٥٠ [الهامش في الكتابين] .

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أما القسم المنفي الذي جاء الاستفهام فيه عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع فمثاله عند ابن أبي الإصبع قول زهير:

وما أدْري وسوف إخالُ أدْرِي ∴ أقومُ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

وهذه القسمة ذهب إليها أيضاً في بديع القرآن، والواقع أنها قسمة عقلية – من وجهة نظرى – لم تضف إلى (تجاهل العارف) شيئاً، بل ربما أكسبته غموضاً لا تجده عند البلاغيين السابقين .

هذا ما على ابن أبي الإصبع، أما الذي يحسب له في هذا المجال فهو تعريفه، وذكر الأغراض البلاغية التي يأتي من أجلها كالتعجب، والتوبيخ، والمدح، والذم، والتدله في الحب، وهي مسميات لم يُسبق إليها .

الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ):

للخطيب القزويني كتابان في البلاغة أحدهما: التلخيص، والآخر: الإيضاح وقد تناول فيهما تجاهل العارف في علم البديع، وفي القسم المعنوي منه كما فعل من قبل أستاذ مدرسته السكاكي .

والجدير بالذكر أن الخطيب ارتضى تسمية ابن المعتز (تجاهل العارف) وأشار إلى تسمية السكاكي (سوق المعلوم مساق غيره) ولم يبين موقفه منها .

وما ذكره الخطيب في التلخيص ذكره أيضاً في الإيضاح مع إضافة بعض الشواهد، لذا أكتفي بعرض كلامه في الإيضاح .

قال [(١)]: " ومنه تجاهل العارف وهو – كما سماه السكاكي – سوق المعلوم مساق غيره لنكتة كالتوبيخ في قول الخارجية:

أيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورقاً ∴ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ على ابْنِ طَرِيفِ

والمبالغة في المدح في قول البحتري:

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ ∴ أمْ ابْتِسَامتُهَا بالْمَنْظَرِ الضَّاحِي

أو في الذم كقول زهير:

وما أدْري وسوف إخالُ أدْرِي ∴ أقومُ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

وقول ذي الرمة:

أيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلاجِلٍ ∴ وبَيْنَ النَّقَا آأنتِ أمْ أمُّ سَالِمِ

والتحقير في قوله تعالى في حق النبي (ﷺ) حكاية عن الكفار ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ

---

(١) الإيضاح: ٦٦/٤ – ٦٨ (مع البغية) طبع ونشر: مكتبة الآداب، وينظر: التلخيص شرح محمد هاشم دويدري صـ١٨١، ط: دار الجيل، بيروت، ط: الثانية ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١) كأن لم يكونوا يعرفون عنه إلاَّ أنه رجل ما .

والتعريض في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) ... " .

هذا هو كلام الخطيب القزويني عن (تجاهل العارف) وأهم ما يلفت النظر فيه ويستدعي الوقوف عنده هو أنه ذكر عبارة السكاكي (سوق المعلوم مساق غيره) ولم يحدد موقفه منها قبولاً أو رفضاً، وأبى إلاَّ الرجوع إلى التسمية الأولى (تجاهل العارف) .

حديث الخطيب عن تجاهل العارف جاء سريعاً للغاية، فلم يعرفه، أو يشر إلى القيمة البلاغية له، وإنما اكتفى بسرد شواهده شأنه في ذلك شأن أستاذ مدرسته السكاكي .

أما الذي يحسب له في هذا المجال، فهو تصريحه بأن (تجاهل العارف) لابد من أن يكون لنكتة، فإذا عُبِّر عن المعلوم بعبارة المجهول لا لنكتة لم يكن من هذا الباب .

ثم وضَّح النكات التي من أجلها يعبر عن المعلوم بعبارة المجهول، مستشهداً لها من القرآن الكريم وأشعار العرب، وهذا عمل لم يسبق به، اللهم إلاَّ إذا استثنينا بعض إشارات ابن أبي الإصبع المصري .

---

(١) سورة: سبأ، من الآية [٧] .
(٢) سورة: سبأ، من الآية [٢٤] .

ابن يعقوب المغربي (ت ١١١٠هـ):

إذا كان الخطيب القزويني وبعض من تلاه من شراح التلخيص قد وقفوا عند حد الإشارة إلى تسمية ابن المعتز، وما ذهب إليه السكاكي فإن ابن يعقوب قد صنع صنيعاً غير هذا، فبعد أن ذكر عبارة ابن المعتز (تجاهل العارف) وما ذهب إليه السكاكي وهو (سوق المعلوم مساق غيره) تجده يرجح ما ذهب إليه السكاكي معللاً لذلك، وهذا مما يحسب له في هذا المجال .

يقول: " ومنه أي من البديع المعنوي (تجاهل العارف)... وهذا النوع يسمى باسمين أحدهما هو ما تقدم والآخر كما سماه السكاكي وهو (سوق المعلوم مساق غيره) ... والعبارة الثانية أفضل لوجهين أحدهما ما أشار إليه السكاكي من أنه يقع في قول الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾[١] قال: فلا أحب أن يقال في الكلام المنسوب إلى الله تجاهل العارف يعني بخلاف غير هذه العبارة فإنها أقرب إلى الأدب، ولفظ الغير فيها وإن كان عبارة عن المجهول لكن دلالته أستر لعمومه، والآخر أنه أكمل في الدلالة على المقصود"[٢].

بعد ذلك وضح المغربي ما اشترطه الخطيب القزويني من أن التعبير عن المعلوم بعبارة المجهول لابد وأن يكون لنكتة فإن لم يكن لنكتة لم يكن من هذا الباب يقول: " فإن عُبِّر عن المعلوم بعبارة المجهول لا لنكتة كأن يُقال: أزيد قائم أم لا حيث يعلم أنه قائم لم يكن من هذا الباب في شيء " [٣] .

كما أنه ذكر النكات التي نصَّ عليها الخطيب وشرحها مستأنساً في شرحه بما قاله الخطيب وسعد الدين التفتازاني وبهاء الدين السبكي .

---

(١) سورة: طه، الآية [١٧] .

(٢) مواهب الفتاح: ٤٠٣/٤ (ضمن مجموعة شروح التلخيص) .

(٣) المرجع السابق: ٤٠٣/٤ (ضمن مجموعة شروح التلخيص) .

ويختم ابن يعقوب كلامه عن تجاهل العارف، فينص على أن ما ذكره من نكات أنموذج فقط وأمثلة يسيرة وطرف قليل، وإلا فهي أكثر من أن يضبطها قلم يقول: " ثم ما مثل به المصنف أنموذج أي أمثلة يسيرة وطرف قليل وإلاَّ فهي أكثر من أن تنضبط بالقلم فمنها التعريض ... ومنها التحقير ... ومنها غير ذلك من الاعتبارات البلاغية المستفادة من تتبع تراكيب الشعراء أو غيرهم " [١] .

هذا هو موقف ابن يعقوب من تجاهل العارف، وهذه هي دراسته له والتي تعد – من وجهة نظري – لها قيمتها ومكانتها فى الدرس البلاغى.

(١) المرجع السابق: ٤٠٦/٤ (ضمن مجموعة شروح التلخيص) .

المبحث الثالث

تجاهل العارف عند بعض شراح البديعيات

في القرن السابع الهجري اتجه بعض الشعراء إلى نظم فنون البديع في قصائد عرفت باسم البديعيات معتمدين في ذلك على كتب البلاغة التي ذكرت أنواع البديع المختلفة .

فكان على سبيل المثال لا الحصر بديعية صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) وشرحها له بعنوان (شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن الكلام)، وبديعية ابن جابر الأندلسي (ت ٧٨٠هـ) (الحلة السيرافي مدح خير الورى) التي عرفت ببديعية العميان، وقد شرحها رفيقه شهاب الدين الغرناطي (ت ٨٧٩هـ) بشرح أطلق عليه (طراز الحلة وشفاء الغلة) .

وبديعية ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، وشرحها في (خزانة الأدب وغاية الأرب) .

وبديعية جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، المسماة (نظم البديع في مدح خير شفيع)، وشرحه لها .

وكذلك السيدة الفاضلة أم عبد الوهاب عائشة بنت يوسف بن أحمد بن خليفة الباعوني (ت ٩٢٢هـ) في بديعتها المسماة (الفتح المبين في مدح المين).

وصدر الدين السيد علي بن نظام أحمد بن محمد بن معصوم (ت ١١٢٠هـ) في شرحه على بديعيته المسمى (أنوار الربيع في أنواع البديع)، وبمراجعة هذه البديعيات وجدت أن أصحابها اكتفوا بعبارة (تجاهل العارف) التي ذكرها ابن المعتز، كما أنهم عنوا بذكر النكات البلاغية التي ذكرها الخطيب القزويني، بل ربما زادوا عليها .

ولما كان شرح شهاب الدين الغرناطي المسمى (طراز الحلة وشفاء الغلة) من أقوى هذه الشروح من حيث وضوح الرأي رأيت من تمام الفائدة عرض ما قاله الغرناطي، مكتفياً به عما ذكره بعض أصحاب البديعيات قبله وبعده، خاصة وأني وجدت أكثرهم يكرر ما قاله غيره، فصفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) لم يأت بجديد يستحق الوقوف عنده (١) .

وابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) في (خزانة الأدب وغاية الأرب) استهل كلامه عن تجاهل العارف بما نقله عن شهاب الدين الغرناطي . من حيث تعريفه، والفائدة منه، ورأيه فيه، ورأى الذين لا يخصون تجاهل العارف بالتشبيه بل يجعلونه مطلقاً (٢) .

كما لم يضف السيوطي في شرحه على بديعيته (نظم البديع في مدح خير شفيع) شيئاً يستحق الوقوف عنده (٣) .

وكذلك السيدة الفاضلة عائشة الباعونية (٤) .

---

(١) ينظر: شرح الكافية البديعية لصفي الدين الحلي صـ١١٧ وما بعدها، تحقيق: الدكتور/ نسيب نشاوي، دمشق ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

(٢) ينظر في ذلك: (خزانة الأدب وغاية الأرب) لابن حجة الحموي صـ٢٧٥ – ٢٨١، تحقيق وشرح: عصام شعيتو، نشر: دار الهلال، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٩٩١م .

(٣) ينظر: (نظم البديع في مدح خير شفيع) للسيوطي صـ٤٦، تحقيق: الشيخ/ علي محمد معوض، والشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، نشر: دار القلم العربي بحلب، ط: الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

ـ ولم يختلف حال السيوطي في نظمه المسمى (عقود الجمان فى المعانى والبيان) وشرحه له عن صنيعه في بديعته السابقة. [ينظر: شرح عقود الجمان في المعاني والبيان: ١٣٥/٢، ١٣٦، طبع ونشر: مصطفى البابي الحلبي، ط: الثانية ١٣٧٤هـ ١٩٩٥م].

(٤) ينظر: الفتح المبين في مدح الأمين وشرحها للسيدة الفاضلة عائشة الباعونية صـ١٠١، ١٠٢، تحقيق ودراسة: الباحث/ عبد العزيز عبد السلام محمد مخلوف، رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بالقاهرة .

حتى صدر الدين بن معصوم – على تأخره في الزمان – لم يأت بجديد يستحق الوقوف عنده، فقد ردد ما قاله السابقون عليه، وكل ما له هو الإفاضة في عرض النكات التي بها يتحقق (تجاهل العارف) [١] .

والآن فمع شهاب الدين الغرناطي (ت ٧٧٩هـ) وكيف كان عرضه (لتجاهل العارف) موضوع الدراسة، وهل له من جهد يستحق الوقوف عنده ؟

ذكر ابن جابر الأندلسي[٢] في بديعته المسماة (الحلة السيرافي مدح خير الورى) تجاهل العارف، وأفاض شهاب الدين الغرناطي[٣] في شرحه له فى شرحه المسمى (طراز الحلة وشفاء الغلة) فعرفه، وأشار إلى فائدته، وذكر رأيه فيه فقال: (هو أن يسأل المتكلم عن شيء يعرفه سؤالَ مَنْ لا يعرفه ليوهم أن شدّة الشبه الواقع بين المتناسبين أحدثت عنده التباس المشبه به بالمشبه .

وفائدته المبالغة في المعنى نحو قولك: أوجهك هذا أم بدر فإن المتكلم يعلم

---

(١) ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم: ١١٣/٥ – ١١٩، تحقيق: شاكر هادي شكر.

(٢) ابن جابر الأندلسى هو شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الهواري المالكى أبو عبد الله الأعمى النحوي، ولد سنة ثمان وتسعين وستمائة، وقرأ القرآن والنحو على محمد بن يعيش، والفقه على محمد بن سعد الرندي، والحديث على أبي عبد الله الزواوي، مات سنة ثمانين وسبعمائة هجرية .
ـ [ينظر: الأعلام للزركلى: ٣٢٨/٥، وطراز الحلة وشفاء الغلة صـ ٤٥، (مقدمة المحقق)، تحقيق: د/ رجاء السيد الجوهرى، ط: مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية].

(٣) هو أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي، يكنى بأبي جعفر الألبيري، ويعرف بشهاب الدين الغرناطي، أديب ماهر، ولد بعد السبعمائة، ومات قبل رفيقه ابن جابر الأندلسى فى منتصف رمضان سنة تسع وسبعين وسبعمائة، وكان مقتدرا على النظم والنثر، عارفا بالبديع وفنونه، اشتهر مع رفيقه ابن جابر بالأعمى والبصير.
ـ [ينظر: الأعلام للزركلى: ٢٧٤/١، وطراز الحلة وشفاء الغلة صـ ٤٨ (مقدمة المحقق)].

أن الوجه غير البدر، إلا أنه لما أراد أن يبالغ في وصف الوجه بالحسن استفهم هل هو وجه أو بدر ففهم منه شدَّة الشبه بين البدر والوجه بحيث لا يوجد فرق بينهما .

فإذا كان السؤال عن الشيء الذي يعرفه المتكلم خالياً من الشبه لم يكن من هذا الباب بل يكون من باب آخر، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ (١) فإن السؤال هنا ليس لأجل التشبيه المشار إليه في تجاهل العارف بل هو لفائدة أخرى إما على جهة التأنيس لموسى (عليه السلام)؛ لأن المقام مقام هيبة واحترام، وإما لإظهار المعجز الذي لم يكن موسى (ﷺ) يعلمه.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ﴾(٢) فإن السؤال لم يكن لأجل التشبيه وإنما هو لتوبيخ من ادعى ذلك " (٣) .

من تعريف الغرناطي السابق يتضح أنه يرى أن تجاهل العارف لا يتأتى إلاَّ عند التباس المشبه به بالمشبه وأن سؤال الذي يعرف سؤال من لا يعرف إذا لم يكن مبنياً على التشبيه لم يكن من تجاهل العارف .

والواقع أن هذا الرأي لم يصرح به أحد من البلاغيين قبل الغرناطي سوى ابن الزملكاني وقد سبق بيان ذلك (٤) .

أما عن الفائدة البلاغية من وراء (تجاهل العارف) فهي عند الغرناطي المبالغة في المعنى ففي قولهم: أوجهك هذا أم بدر . السائل يعلم أن الوجه غير البدر إلاَّ أنه لما أراد أن يبالغ في وصف الوجه بالحسن استفهم هل هو وجه أو

---

(١) سورة: طه، آية [١٧] .

(٢) سورة: المائدة، من الآية [١١٦] .

(٣) طراز الحلة وشفاء الغلة صـ٦١٦، تحقيق: الدكتورة/ رجاء السيد الجوهري، ط: مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية .

(٤) ينظر: التبيان في علم البيان صـ١٨٨، والبحث صـ

بدر، ففهم منه شدَّة الشبه بين البدر والوجه .

إذا فالمبالغة عند الغرناطي قائمة على شدّة الشبه بين المشبه به والمشبه، وهو في هذا مسبوق بالعلامة ابن رشيق عند كلامه عن الفائدة من تجاهل العارف، أو (التشكك) كما سماه قال: " وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ولا يميز أحدهما من الآخر " (١) .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بعد عرض رأي الغرناطي هو هل سار الغرناطي على رأيه هذا في تناوله وعرضه لـ (تجاهل العارف) ؟ يجاب على ذلك: بأن الغرناطي بعد أن ذكر رأيه الذي ارتضاه، وهو تخصيص (تجاهل العارف) بالتشبيه ذكر أن هناك من وسَّع دائرته، فلم يقصره على التشبيه فقط .

قال: " ومن الناس من جعل تجاهل العارف مطلقاً، سواءً كان على طريق التشبيه أمْ لا، ومنه عندهم قوله تعالى حكاية عن الكفار ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ (٢)، فنزلوا النبي (ﷺ) منزلة المجهول، وهو عندهم معلوم كأنهم لم يعرفوا منه إلاَّ أنه رجل .

إذا تقرر هذا فاعلم أن تجاهل العارف من حيث هو إنما يأتي لنكتة من مبالغة في مدح، أو ذم، أو تعظيم، أو تحقير، أو توبيخ، أو تقرير، أو تدله في الحب ... " (٣) .

وإذا كان الغرناطي قد نسب هذا الرأي لغيره، ولم يبين موقفه منه قبولاً أو رفضاً فإني أرى أن افاضته في ذكر الأغراض والتمثيل لها فيه دلالة كاملة على ارتياحه لهذا الرأي .

---

(١) ينظر: العمدة صـ٦٦ والبحث صـ

(٢) سورة: سبأ، من الآية [٧] .

(٣) طراز الحلة وشفاء الغلة صـ٦١٧ .

والدليل على ذلك أنه بعد أن ذكر النكات التي من أجلها يأتي تجاهل العارف غير المبالغة في التشبيه تولي التمثيل لها من أقوال الشعراء، فمثل للمبالغة في المدح ببيت ابن جابر في بديعته

قال: " وقد ذكر الناظم له بيتاً واحداً قال:

إذَا بَدَا البدرُ تَحْتَ اللَّيلِ قلتُ لهُ ∴ أأنتَ يَا بدرُ أم مرأى وجُوهِهِمِ

.... فيه استشهاد وهو تجاهل العارف الواقعة للمبالغة في المدح، والشاهد في قوله " أأنت يا بدر إلخ " (١) .

ثم بين وجه الحسن في البيت، فشرحه في آخر كلامه عن (تجاهل العارف) قال: " المعنى: يقول إن هؤلاء القوم إذا قابلت وجوههم بدر السماء اشتد الشبه بينها وبين البدر في الظلماء حتى يعجز الناظر بينهما عن التفريق، ويحتاج إلى الاستفهام المؤذن بعدم التحقيق، فتجاهل (تجاهل العارف)، واستفهم لما يحصل في ذلك من النكت البديعية واللطائف " (٢) .

ومثل للمبالغة في المدح بيت البحتري أيضاً:

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ ∴ أمْ ابْتِسَامتُهَا بالْمَنْظَرِ الضَّاحِي

ومثل للمبالغة في الذم بيت زهير المشهور في هذا الباب:

وما أدْري وسوف إخالُ أدْرِي ∴ أقومُ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

ومثل للتعظيم بقول الشاعر:

بَدَا فراعَ فؤادِي حسنُ صورتِهِ ∴ فقلتُ هل مَلِكٌ ذَا الشَّخْص أمْ مَلَكَ

(١) المرجع السابق صـ٦١٧ .
(٢) المرجع السابق صـ٦٢٠ .

قال ومثاله في التحقير قول الناظم:

قلتُ لِغُصْنِ البانِ لَّما ادَّعى ∴ بأنَّهُ يُشْبِهُ أغْصَانَها

ما أنتَ يا غصنُ شبيهُ لَها ∴ تاللهِ ما تُدْرِكُ أوْصَافَها

ومثاله في التوبيخ قول ليلى بنت طريف الخارجية في أخيها:

أيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورقاً ∴ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ على ابْنِ طَرِيفِ

ومثاله في التقرير قول مهيار:

سَلَا ظَبيَةَ الْوادِي ومَا الظَّبْيُ مثلَها ∴ وإنْ كانَ مَصْقُولَ التَّرائِبِ أكْحَلَا

أأنتِ أمَرْتِ الْبَدْرَ أنْ يَصْدَعِ الدُّجا ∴ وَعَلَّمتِ غُصْنَ البانِ أنْ يَتَمَيَّلَا

ومثاله في التدله في الحب قول العرجي:

باللهِ يا ظَبيَاتِ القاعِ قُلْنَ لَنَا ∴ ليلايَ منكُنَّ أمْ لَيلى من البَشَرِ (١)

(١) ينظر في كل ما تقدم: طراز الحلة وشفاء الغلة صـ٦١٧ – ٦٢٠ .

بين الاستفهام التقريري وتجاهل العارف

تحت خروج الاستفهام عن معناه الأصلي ذكر العلامة بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ) في كتابه المصباح في المعاني والبيان والبديع بعض الشواهد التي ذكرها السابقون عليه وكذلك الذين أتوا بعده ضمن شواهد " تجاهل العارف " .

فقال: (أو المبالغة في المدح كقوله:

بَدَا فراعَ فؤادِي حسنُ صورتَهُ ∴ فقلتُ هل مَلِكٌ ذَا الشَّخْص أمْ مَلَكَ

أو في الذم كقول زهير:

أقومُ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

أو التدله في الحب كقول العرجي:

باللهِ يا ظَبيَاتِ القاعِ قُلْنَ لَنَا ∴ ليلايَ منكُنَّ أمْ لَيلى من البَشَرِ

أو في الجحد والإنكار: كقولك متى قلت هذا ... وهذا النوع من الكلام أعني تعدي الاستفهام عن مورد الحقيقة يسمى الإعنات وسماه ابن المعتز تجاهل العارف " [١] .

هذا ما قاله بدر الدين ابن مالك، والذي ينبغي الوقوف عنده وتجليه أمره أنه لا علاقة بين الإعنات والاستفهام اطلاقاً فالإعنات كما عرَّفه ابن المعتز وعرف بذلك عند البلاغين بعده هو (إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له) [٢] .

كما أنه تجاهل العارف عند ابن المعتز وعند الجمهور غير الإعنات ولا صلة بينهما لا من قريب أو بعيد .

---

(١) المصباح في المعاني والبيان والبديع صـ٨٧، ٨٨، تحقيق: د/ حسني عبد الجليل يوسف.
(٢) كتاب البديع لابن المعتز صـ٧٤ .

كما أنه لا علاقة بين تجاهل العارف والقسم الثاني من أقسام الاستفهام التقريري وهو حمل المخاطب على الإقرار بمضمون الكلام، وإن كانت هناك صلة بين تجاهل العارف والاستفهام التقريري الذي هو بمعنى التحقيق والتثبيت كما في قوله تعالى في سورة الضحى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (٢) .

وأخلص من كل هذا إلى أن بعض أساليب الاستفهام التقريري وهو الذي يأتي بمعنى التحقيق والتثبيت نمط من أنماط تجاهل العارف أو (سوق المعلوم مساق غيره) .

وأن تجاهل العارف أوسع دائرة من الاستفهام فهو كثيراً ما يأتي من مقام يظهر فيه المتكلم التشكك أو تشابه الأمرين مبالغة في إثبات صفة ما أو نفيها، وأحسنه ما كان بطريق التشبيه ؛ لأن المبالغة المقصودة فيه هي في التشبيه أظهر منه في سواه .

وأن الأمر فيه خاص بالمتكلم، ولا دخل فيه للمخاطب، بخلاف الاستفهام التقريري الذي هو بمعنى حمل المخاطب على الإقرار بمضمون الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (٣) .

فقد أرادوا تقريره بأنه الفاعل إذ إن الفعل واقع ومشار إليه، وقد جاء جوابه معيناً لهم الفاعل، ولكن بطريق التهكم والسخرية بعقولهم بقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ (٤) وهدفه من ذلك التنبيه إلى حقارة ما يعبدون من دون الله، وبيان مدى ما وصل إليه هؤلاء من جهل .

---

(١) سورة: الضحى، الآيات [٦ – ٨] .
(٢) سورة: الشرح، آية [١] .
(٣) سورة: الأنبياء، آية [٦٢] .
(٤) سورة: الأنبياء، من الآية [٦٣] .

ومما يدل على أن تجاهل العارف أوسع دائرة من الاستفهام أنه أحياناً يأتي بغير صيغة سؤال كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١).

فالله ورسوله أعلم بمن هو على هدى، ولكن ساق الكلام على هذا النحو للتعريض بعدم هداهم .

(١) سورة: سبأ، من الآية [٢٤] .

الفصل الثاني

تجاهل العارف دراسة تحليلية

واشتمل على:

النكتة الأولى: التوبيخ.

النكتة الثانية: المبالغة في المدح.

النكتة الثالثة: المبالغة في الذم.

النكتة الرابعة: التدله لحب أو غيره.

النكتة الخامسة: جلب المخاطب إلى معرفة الحقيقة حتى يفيق من غفلته.

النكتة السادسة: التنبيه على خطأ وقع فيه المخاطب فيقلع عنه.

النكتة السابعة: الإنكار والمغالطة.

النكتة الثامنة: التحقير.

النكتة التاسعة: التعريض.

النكتة العاشرة: التهكم.

الفصل الثاني

تجاهل العارف دراسة فنية

المتتبع لكلام العلماء عن تجاهل العارف يرى أنه يدور حول تنزيل المتكلم الأمر المعلوم منزلة المجهول فيسأل عنه سؤاله عن المجهول مبالغة فيما هو آخذ فيه من مدح، أو ذم، أو تعظيم، أو تدله، أو نحو ذلك .

(ولما كان ذلك خلافاً للأصول المقررة فإن (تجاهل العارف) أو كما يسميه السكاكي (سوق المعلوم مساق غيره) لابد فيه من نكتة تجعل الصيرورة إليه وترك الأصل هي الأولى بالاعتبار) [١] .

ومن خلال عرض كلام العلماء عن هذا اللون البديعي منذ نشأته على يد ابن المعتز وجدت أن كلام الأوائل كان يدور حول تعريفه والفائدة منه، ثم الاستشهاد له من كلام العرب: شعر ونثراً، ومن كلام الله تعالى دون وضع هذه الشواهد تحت نكات واعتبارات معينة، وأن ابن أبي الأصبع المصري هو أول من ذكر لهذا اللون نكاتاً وأغراضاً حين قال في تعريفه له: (هو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه ليخرج كلامه مخرج المدح، أو الذم، أو ليدل على شدة التدله في الحب، أو لقصد التعجب، أو التقرير، أو التوبيخ) [٢].

ثم جاء الخطيب القزويني بعده فجعل النكتة شرطاً لمجيء الكلام بهذه الطريقة، ووضعه تحت هذا المسمى البلاغي قال: (ومنه تجاهل العارف وهو كما سماه السكاكي (سوق المعلوم مساق غيره) لنكتة كالتوبيخ ... والمبالغة في

---

(١) البديع من المعاني الألفاظ لأستاذي الأستاذ الدكتور/ عبد العظيم المطعني صـ٦٩، ط: دار وهدان، ط: الأولى، من دون تاريخ .

(٢) تحرير التحبير صـ١٣٥، وبديع القرآن صـ٥٠ .

المدح ... أو في الذم ... والتدله في الحب ... والتحقير ... والتعريض ...) [١] .

وقد تولى شرَّاح التلخيص توضيح مراد الخطيب بقوله (لنكتة) فقال السبكي: " أي لا يفعل ذلك إلاَّ لاعتبار مقصود " [٢] .

وقال ابن يعقوب: " لنكتة أي لفائدة فإن عُبِّر عن المعلوم بعبارة المجهول لا لنكتة كأن يقال: أزيد قائم أم لا – حيث يعلم أنه قائم – لم يكن من هذا الباب في شيء " [٣]، ونقل عنه ذلك الدسوقي [٤] .

إذاً فالنكتة أو الاعتبار المناسب المقصود أمر لابد منه لوجود ما يسمى بـ (تجاهل العارف) أو (لسوق المعلوم مساق غيره) كما سماه السكاكي .

وقبل الإفاضة في ذكر هذه النكات وشواهدها أشير إلى أمرين:

أحدهما: أن بعض البلاغيين خص تجاهل العارف بالتشبيه فقط، منهم من صرَّح بذلك كابن الزملكاني والعلوي، ومنهم من فهم ذلك من كلامه وشواهده كابن حيدر البغدادي، وضياء الدين ابن الأثير وغيرهما .

وأن أكثر البلاغيين لم يقيده بالتشبيه، وإنما ذكروا شواهد ونكات تحقق فيها تجاهل العارف عن طريق التشبيه، وشواهد أخرى تحقق فيها بغير التشبيه كالتحقير والتعريض ..

وإن كان أحسن هذا اللون ما جاء بطريق التشبيه، لأن المبالغة التي جاءت بطريق التجاهل في التشبيه أوضح منه فيما سواه إلاَّ أن الرأي الذي أرتضيه وأسير عليه هو قبول تجاهل العارف مطلقاً سواء تحقق عن طريق

---

(١) الإيضاح: ٦٦/٤ – ٦٩ مع البقية .
(٢) عروس الأفراح: ٤٠٣/٤ (ضمن شروح التلخيص)، ط: دار السرور.
(٣) مواهب الفتاح: ٤٠٣/٤ (ضمن شروح التلخيص)، ط: دار السرور.
(٤) حاشية الدسوقي: ٤٠٣/٤ (ضمن شروح التلخيص)، ط: دار السرور.

التشبيه أو عن طريق غيره طالما تحقق في الكلام أمران .

أحدهما: أمر معلوم سيق مساق المجهول .

والآخر: تضمن ذلك السوق نكتة راعاها المتكلم عند اخراجه الكلام بهذه الطريقة.

الثاني: أن البلاغيين المتأخرين فتحوا للباحثين أبواب البحث عن نكات أخرى غير التي ذكروها في كتبهم .

فسعد الدين التفتازاني بعد أن ذكر بعض النكات البلاغية قال: " وهذا أنموذج من نكت التجاهل وهي أكثر من أن يضبطها القلم " (١) .

وابن يعقوب المغربي يقول: (ثم ما مثَّل به المصنف أنموذج من نكت التجاهل لأنها أكثر من أن تنضبط بالقلم)، ويقول أيضاً في نهاية كلامه " ومنها غير ذلك من الاعتبارات البلاغية المستفادة من تتبع تراكيب الشعراء أو غيرهم " (٢).

وهذه أقوال لها دلالتها ومغزاها فنكات هذا اللون لا تقف عند حد الذي ذكره البلاغيون في كتبهم، وللسياق، وقرائن الأحوال دور كبير في تحديد الغرض الذي من أجله جاء الكلام بطريق التجاهل، المهم أن الغرض يحقق المبالغة في إثبات الصفة المطلوبة أو نفيها .

---

(١) شرح السعد المسمى مختصر المعاني: ١١٤/٣، تحقيق: الشيخ/ محمد محي الدين عبدالحميد، طبع ونشر: مكتبة محمد على صبيح، من دون تاريخ .

(٢) مواهب الفتاح: ٤٠٦/٤ (ضمن شروح التلخيص) .

النكتة الأولى: التوبيخ:

تدور كلمة التوبيخ في اللغة حول اللوم والتأنيب والتهديد، ففي لسان العرب: " وبَّخه لامه وعزله ... والتوبيخ التهديد والتأنيب واللوم " (١) .

ولعل من أشهر شواهد هذا اللون البيت الذي قالته لَيْلَى بنت طريف الشيباني في رثاء أخيها حين قتله يزيد بن مَزْيد الشيباني في عهد هارون الرشيد:

أيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مورقاً ∴ كأنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ (٢) .

الخابور – كما ذكر بعض شراح البيت – " نهر في ديار بكر ينبت على حافتيه أشجار، وشجر الخابور نوع من ذلك الشجر النابت على حافتي ذلك النهر، وبكر: كان من عظماء الجاهلية، وقولها: مالك مورقاً ؟ أيْ أيُّ شيء ثبت لك في حال كونك مورقاً أي مخرجاً لأوراقك ناضراً أي ناعماً لا ذابلا، يقال: أورق الشجر أي: صار ذا ورق " (٣) .

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (وبخ): ١٩٨/١٥، شرح وتعليق: علي شيري، ط: دار إحياء التراث العربي، ط: الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

(٢) البيت في مفتاح العلوم للسكاكي صـ١٩٢، وكذلك في الإيضاح: ٦٦/٤، وفي خزانة الأدب لابن حجة: ٧٨/١، منسوب لليلى الخارجية أيضاً وكذلك في أنوار الربيع لابن معصوم: ١٣٢/٥، وكذلك في عروس الأفراح للسبكي ومواهب الفتاح لابن يعقوب: ٤٠٣/٤ (ضمن مجموعة الشروح).

ـ وقد نسبه الدسوقي للخارجية أيضاً ولكنه ذكر أن قالته يزيد بن معاوية وهو خطأ ظاهر وذكر بعده

فَتَى لا يَرِيدُ العزَّ إلَّا من التُّقى ∴ ولا الرزقَ إلَّا من قنىً وسيوفِ

[حاشية الدسوقي: ٤٠٣/٤].

(٣) ينظر: مواهب الفتاح: ٤٠٤/٤، وحاشية الدسوقي: ٤٠٤/٤ .

والواقع أنها تعرف أن الشجر لا علم له بابن طريف ولا بهلاكه، وأنه لا يجزع؛ لأن الجزع لا يكون إلاَّ من العاقل، ولكنها مع هذا تجاهلت، وأظهرت أنها تعتقد علمه بابن طريف ومآثره، وأنه يجزع عليه كغيره جزعاً يوجب ذبوله، وأن لا يخرج ورقه فلما أورق وبَّخته على ذلك، وأظهرت أنها تشك في جزعه .

هذا هو المعنى الظاهر للبيت، وإن كنت أرى أنها ترمي في توبيخها لما هو أبعد من ذلك، وهو توبيخ من لم يحزن ممن يتأتى منه الحزن، يقول في هذا المعنى ابن يعقوب: " فإذا كان الشجر يوبخ على عدم الجزع فأحرى غيره، فالتجاهل هنا المؤدي إلى تنزيل ما لا يعلم منزلة العالم صار وسيلة للتوبيخ على الإيراق ووسيلة إلى أن مآثره بلغت إلى حيث يعلم بها الجمادات " (١) .

ولبهاء الدين السبكي رأى آخر في تفسير سبب سؤال الشاعرة لمن لا يتأتى منه السؤال وهو شجر الخابور، إذ أنه يرى أن ذلك من المبالغة في مدح أخيها يقول: " ولقائل أن يقول: ليست النكتة هنا إرادة توبيخ الشجر بل النكتة إرادة إيهام أن الحزن على المذكور من الأمور العامة حتى لا يختص بها إنسان عن شجر فهو تجاهل، فأتى في ظاهر اللفظ بالتوبيخ لنكتة المبالغة في المدح على جهة الغلو بالوجه المستحيل " (٢).

وما رآه السبكي له وجاهته، وهو عندي موضع إعجاب، فكثيراً ما لجأ الشعراء قديماً وحديثاً إلى مثل هذه الأمور حين يريدون المبالغة في مدح المرثي وتعظيمه فيجعلون السماء والأرض تبكيان عليه ...

تجد مثل هذه عند النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث الغسَّاني .

---

(١) مواهب الفتاح: ٤٠٤/٤ (ضمن مجموعة الشروح) .

(٢) عروس الأفراح: ٤٠٤/٤ (ضمن مجموعة الشروح) .

بكى حارِثُ الجَولانِ من فَقْد ربّه ∴ وتورانُ منه مُوحِشُ مُتَضَائِلُ [١]

فهو يرى أن حوران بعد موت النعمان أصبح موحشاً متضائلاً .

وجرير يقول [٢]:

لما أتَى خَبَرُ الزّبَيْر تَواضَعَتْ ∴ سُورُ المدينة والْجبالُ الخُشَّعُ

وأحمد شوقي يقول في رثاء الزعيم مصطفى كامل [٣]:

السّكةُ الكُبرى حِيالَ رُباهما ∴ منكوسةُ الأعلامِ والقُضْبان

والناظر إلى السؤال عن الأمر المعلوم واخراجه في صورة غير المعلوم لأجل التوبيخ – في القرآن الكريم – يجد أنه قد جاء كثيراً وبصور مختلفة، فأحياناً يسأل عن المعلوم توبيخاً للقوم على تبلد عقولهم وتحجر مشاعرهم، وعدم تمييزهم بين ما يضرهم وما ينفعهم .

تجد مثل هذا في قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا ﴾ [٤] .

في الآية السابقة على الآيات أمر الله بعبادته، والإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى .. ثم ختمها بقوله: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ .

---

(١) ديوان النابغة الذبياني صـ١٤٣ شرح وتعليق: د/ حنا نصر الحتّى، نشر: دار الكتاب العربي، ط: الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

(٢) ديوان جرير صـ٢٧٠، دار صادر، بيروت .

(٣) الشوقيات: ١٢٢/٣، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، من دون تاريخ .

(٤) سورة: النساء، الآيات [٣٧ – ٣٩] .

والمختال ذو الخيلاء والكبر وإنما ذكر الاختيال هنا؛ لأن المختال – كما ذكر الرازي نقلاً عن الزجاج –: " يأنف من أقاربه إذا كانوا فقراء ومن جيرانه إذا كانوا ضعفاء فلا يحسن عشرتهم " (١) .

ثم صدرت الآيات التي معنا بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ... ﴾ وعطف عليها قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ... ﴾ وقد جاءتا في موقع البدل من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ والمعنى: (إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا، ولا يحب الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل)، (ولا يحب الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس) .

وإذا نظرت إلى الآيتين: الأولى والثانية تجد أن الآية الأولى ذكرت الأحوال المذمومة لهؤلاء مترقية من الأدنى إلى الأعلى، فهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، وهذا هو النهاية في حب البخل، وهم أيضاً يكتمون ما آتاهم الله من فضله " فيوهمون الفقر مع الغنى والإعسار مع اليسار والعجز مع الإمكان " (٢) .

أما الآية الثانية فتذكر صنفاً آخر من هؤلاء القوم، وهم الذين ينفقون أموالهم، ولكن لا لوجه الله وابتغاء مرضاته، ولكن للفخار، وليقال ما أسخاهم وما أجودهم .

ذكر الرازي نقلاً عن الواحدي أنها نزلت في المنافقين قال: " قال الواحدي: نزلت في المنافقين وهو الوجه لذكر الرئاء وهو ضرب من النفاق " (٣)، وقال الزمخشري: " وقيل نزلت في مشركي مكة المنفقين أموالهم في عداوة

---

(١) مفاتيح الغيب: ٧٩/١٠، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م.
(٢) مفاتيح الغيب: ٨٠/١٠ .
(٣) مفاتيح الغيب: ٨١/١٠ .

رسول الله (ﷺ) " [١] .

أما الآية الثالثة والتي هي محل الشاهد فقد صدّرت باستفهام وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ وواضح أن (ماذا) تفيد الاستفهام إما بمجموعها أو على كون (ما) استفهامية وذا بمعنى الذي موصولة، والمعنى ما الذي عليهم، أو أي تبعة ووبال وضرر يحيق بهم بسبب الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق في سبيله .

وواضح أن السؤال عن الضرر المترتب عن الإيمان بالله والإنفاق في سبيله، وأن الذي وجَّه السؤال هو الله (ﷻ)، ومعلوم أن لا ضرر في ذلك ليسأل عنه، كما أنه لا يليق بالله سبحانه أن يسأل عن ذلك إذا فما الغرض من السؤال ؟

الغرض من السؤال هو توبيخ هؤلاء القوم على جهلهم بمكان المنفعة، وعدم تمييزهم بين ما ينفع وما يضر .

قال الألوسي: " وليس المراد السؤال عن الضرر المترتب على الإيمان والإنفاق في سبيل الله كما هو الظاهر إذ لا ضرر في ذلك ليسأل عنه، بل المراد توبيخهم على الجهل بمكان المنفعة، والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه ... وتنبيههم على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب احتياطاً فكيف إذا تدفقت منه المنافع ؟! وهذا أسلوب بديع كثيراً ما استعملته العرب في كلامها ومن ذلك قول من قال[٢]:

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل: ٥٢٧/١، ط: مصطفى البابى الحلبى، ط: الأخيرة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

(٢) البيت لقتيلة بنت الحارث اخت النضر بن الحارث مخاطبة النبى (ﷺ) حين قتل أخاها إثر فتح مكة. [ينظر: العقد الفريد لابن عبد ربه: ٢٢٢/٣، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: أولى ١٤٠٤هـ .

ما كان ضرَّك لو مَنَنتَ وَرُبَّما ∴ مَنَّ الفتَى وهو المغيظُ المُحْنَقُ "[١]

ومنه توبيخ الكافرين من أهل مكة على سفههم وجهلهم، وتحكمهم على الله تعالى في تدبير أمر النبوة ونزول القرآن العظيم على من أرادوا .

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [٢] .

تحكي لنا هذه السورة الكريمة ألواناً متعددة من كفر هؤلاء القوم:

أولها: أنهم جعلوا لله تعالى ولداً حين قالوا: الملائكة بنات الله . يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [٣] .

ثانيها: أنهم وصفوا الملائكة – الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله – بأنهم إناث في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [٤] .

ثالثها: أنهم وصفوا القرآن بأنه سحر حيث قال الله عنهم: ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [٥] .

رابعها: أنهم استبعدوا نزول القرآن على النبي محمد (ﷺ)، إذ إنهم لما رُدّ عليهم

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٣١/٥، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الرابعة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
(٢) سورة: الزخرف، الآيتان [٣١، ٣٢] .
(٣) سورة: الزخرف، الآية [١٥] .
(٤) سورة: الزخرف، الآية [١٩] .
(٥) سورة: الزخرف، الآية [٣٠] .

في إنكار أن يكون النبي بشراً سلّموا بهذا الأمر، ولكنهم استبعدوا نزول القرآن والوحي على محمد (ﷺ) واقترحوا نزوله على رجل عظيم من القريتين قال الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾.

والقريتان: مكة والطائف وهذا أمر لا خلاف فيه، أما المقصود بالرجلين فقد اختلفت الأقوال في تحديدهما فقالوا: الذي بمكة هو الوليد بن المغيرة، أو عتبة ابن ربيعة، والذي بالطائف هو أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي، وقيل: عمرو ابن عبد ياليل الثقفي، وقيل: حبيب بن عمرو الثقفي، وقيل: كنانة بن عبد ابن عمرو " (١) .

وقد اشترط هؤلاء: العظمة فيمن ينزل عليه القرآن ويُختار للوحي والنبوة – وقد صدقوا فيما قالوا – ولكن العظمة التي يرمي إليها هؤلاء هي: كثرة المال ورئاسة القوم وسيادتهم، ومحمد (ﷺ) – في نظرهم – ليس كذلك، وقد غاب عن هؤلاء أن الله يختص بوحيه وقرآنه ونبوته من يشاء من عباده على ما تقتضيه حكمته وإرادته، وليس ذلك بتدبير المخلوقين وإرادتهم .

وأن العظمة الحقيقية عند الله تعالى وعند أولي الألباب إنما هي عظمة النفس وسمو الروح، وَمَنْ أعظم نفساً وأسمى روحاً من خاتم الأنبياء سيدنا محمد (ﷺ) ؟ ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ أي أهم يمنحون النبوة من يشاءون من العباد ؟ فيقولون: إنها لفلان الغني أو فلان السيد على قومه.

بقي لى بعد ذلك أن أشير إلى أن ردَّ الله على هؤلاء جاء بطريق الاستفهام، ومعلوم أنه لا يمكن حمله على حقيقته فالله تعالى وحده هو الذي يعلم

---

(١) ينظر في ذلك: الكشاف للزمخشري: ٤٨٥/٣، ومفاتيح الغيب للرازي: ١٨٠/٢٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٥٦/١٦، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي: ٢٨/٤ .

من يصلح للنبوة ومن لا يصلح وأنه لا دخل لهؤلاء في أمر النبوة .

وطالما الأمر كذلك فلم جاء الرد بهذه الطريقة ؟ يجاب على ذلك: بأنه أتى بهذه الطريقة توبيخاً لهم وتعجباً من جهلهم وتحكمهم على الله تعالى يرشح هـذا ويقويه عدَّة أمور منها:

أولاً: " قوله تعالى في تمام الآية ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ فقد أخبر تعالى أنه هو الذي قسَّم المعيشة بينهم فلم يحصل لأحد إلاَّ ما قسمه الله تعالى، وإذا كان ذلك في الأمر الفاني فكيف لا يتولى الأمر الخطير وهو إرسال من يشاء فليس لكم أن تتخيروا مَنْ يصلح، بل أنتم عاجزون عن تدبير أموركم " (١) .

ثانياً: أضاف الله تعالى كلمة (رب) إلى ضميره (ﷺ) ﴿ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ وفي هذا من تشريفه (ﷺ) ما فيه، كما أنه أضاف كلمة (الرحمة) وهي النبوة إلى (الرب) ليشير إلى أنها من صفات الله تعالى وحده .

وهكذا فسياق الكلام يشير إلى توبيخ هؤلاء الكفار وتشريفه وتكريمه (ﷺ).

وقد يسأل عن الأمر المعلوم توبيخاً للقوم على متابعتهم للشيطان وانقيادهم له حتى سوَّل لهم ذلك أن يتخذوا غير الله إلهاً ومعبوداً تجد هذا في قول الله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾ (٢) .

المراد بالرسل في قول الله تعالى في الآية ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ ملك الموت وأعوانه يؤيده قوله تعالى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: ١٣/٨، ط: دار الفكر، ط: الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
(٢) سورة: الأعراف، آية [٣٧] .

إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [١] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [٢] .

ومعنى الآية: فمن أعظم ممن افترى على الله كذباً بأن أحلَّ ما حرَّمه الله، أو حرَّم ما أحله الله، أو كذب بآياته المنزلة على أنبيائه " والمراد بهذا الفريق: هم المشركون من العرب، فإنهم كذبوا بآيات الله التي جاء بها محمد (ﷺ)، وافتروا على الله الكذب فيما زعموا أن الله أمرهم به من الفواحش"[٣] كما حكى عنهم القرآن حين قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا...﴾[٤].

هؤلاء القوم ينالهم نصيبهم مما كتب لهم من الأرزاق والأعمال والأعمار فإذا فنيت وانقرضت وفرغوا منها جاءتهم رسل الله يتوفونهم وعند ذلك يسألونهم أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله في الدنيا، فيقولون: ضلوا عنا أي غابوا عنا ولا ندري أين مكانهم .

وقد عدَّ الله تعالى هذا الجواب اعترافاً منهم بكفرهم، وشهادة عليهم حين قال: ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾؛ " لأنهم لما لم ينفوا أن يكونوا يدعون من دون الله، وأجابوا بأنهم ضلوا عنهم قد اعترفوا بأنهم عبدوهم " [٥] .

ومعلوم أن سؤال الملائكة لهؤلاء المتخذين غير الله إلهاً إنما كان بأمر الله – تعالى – فالملائكة كما أخبر الله عنهم: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ

---

(١) سورة: السجدة، آية [١١] .
(٢) سورة: الأنفال، آية [٥٠] .
(٣) التحرير والتنوير لسماحة الشيخ الطاهر بن عاشور: ١١٣/٨، نشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس .
(٤) سورة: الأعراف، من الآية [٢٨] .
(٥) التحرير والتنوير: ١١٨/٨ .

مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١) – والله تعالى عليم بما في نفوس هؤلاء وما سيجيبون به؛ وهذا يجعلني أقول: إن السؤال ليس لطلب العلم بحال ما كانوا يدعون من دون الله، وأين هم ؟ وإنما أريد به توبيخ وتقريع من يعبدونهم كأنهم قيل لهم: أين الذين كنت تعبدونهم من دون الله في الدنيا وتستعينون بهم في الشدائد اُدعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم فأنتم اليوم أحوج ما يكون إليهم.

يقول الألوسي تجلية للغرض من السؤال في الآية: " والاستفهام – على ما ذهب إليه غير واحد – غير حقيقي بل للتوبيخ والتقريع، وعليه فلا جواب. وما ذكر إنما هو للتحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران " (٢) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

قبل هاتين الآيتين ذكر الله تعالى ما كان يفعله كفّار قريش ليصدوا الناس عن النبي (ﷺ) " فلقد كانوا يقعدون في عقبات مكة وطرقها التي يرد منها الناس يقولون لمن سألهم: لا تغتروا بهذا الذي يدّعي أنه نبي فإنه مجنون، أو ساحر، أو شاعر، أو كاهن، وإن الكلام الذي يقوله من أساطير الأوَّلين اكتتبها " (٤) .

فقال:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة: التحريم، من الآية [٦] .
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: ١١٥/٨ .
(٣) سورة: النحل، الآيتان [٢٦، ٢٧] .
(٤) التحرير والتنوير: ١٣٠/١٤ .
(٥) سورة: الآيتان [٢٤، ٢٥] .

ثم أراد الله تعالى أن يسلِّي نبيه (ﷺ) فذكر أن هذا الصنيع وجد عند الأمم السابقة، وهي تسلية تحمل في طياتها التهديد والوعيد لكفار مكة أيضاً برجوع غائلة مكرهم عليهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية .

" ولما كان جوابهم السائلين عن القرآن بقولهم: هو أساطير الأولين مظهرينه بمظهر النصيحة والإرشاد وهم يريدون الاستبقاء على كفرهم سمي ذلك مكراً بالمؤمنين، إذ المكر إلحاق الضرر بالغير في صورة تمويهه بالنصح والنفع، فُنظِّر فعلهم بمكر من قبلهم أي من الأمم السابقة الذين مكروا بغيرهم مثل قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون " (١) .

وقد أعد الله لهؤلاء القوم عذابين أحدهما في الدنيا أشار إليه ﴿ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ... ﴾ .

والثاني في الآخرة وهو الخزي الذي هو بمعنى الذل والإهانة وإليه أشار بقوله: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ... ﴾

ولما كان عذاب الآخرة أعظم من استئصال نعيم الدنيا عطف الآية الثانية على الآية الأولى بـ (ثم) التي تفيد الترتيب الرتبي هنا بجانب التراخي أيضاً .

ولم يقف الحال بهؤلاء في الآخرة عند عذابهم بل يسألهم الله عن شفعائهم الذين كانوا يخاصمون الأنبياء وأتباعهم في شأنهم قائلاً لهم: أين شركاؤكم ؟ " أي ما لهم لا يحضرون ليدفعوا عنكم؛ لأنهم كانوا يقولون إن صح ما تقول فالأصنام تشفع لنا " (٢) .

والله تعالى يعلم أنه ليس في مقدور هؤلاء أن يأتوا بشركاء كما كانوا يدَّعون في الدنيا، كما أن الأمر لا يخفى عليه تعالى حتى يسأل عنه .

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣٣/١٤، ١٣٤ .

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٣٢٦/٥، ط: دار صادر، بيروت .

إذا فما الغرض من السؤال ؟ الجواب: التوبيخ والتفضيح لحالهم .

وزيادة في التوبيخ وحكاية لحالهم في الدنيا أضاف الله كلمة (شركاء) إليه فبدلا من أن يقول: أين أصنامكم الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لله ؟ قال أين شركائي ؟ فعبارة أين أصنامكم تفيد التوبيخ، وعبارة أين شركائي تفيد زيادة التوبيخ، قال الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره: " وإضافة الشركاء إلى ضمير الجلالة زيادة في التوبيخ؛ لأن مظهر عظمة الله تعالى يومئذ للعيان ينافي أن يكون له شريك " (١) .

يضاف إلى ذلك أن الله تعالى في خطابه لهم عبر عن أصنامهم بالموصولية ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ وذلك للتنبيه على خطئهم في جعلهم أصنامهم شركاء لله تعالى ومنازعة الأنبياء في شأنهم، وهذا يفيد زيادة التوبيخ أيضاً .

وقد يخرج الأمر المعلوم في صورة غير المعلوم، فيسأل عنه توبيخاً للإنسان على تماديه في الطغيان ومعاداته لربه وهو أقوى الأقوياء، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾(٢).

الآيتان في سورة المرسلات، وهي سورة زاخرة بالحديث عن أهوال يوم القيامة، وعن أحوال المكذبين في هذا اليوم .

والمراد بيوم الفصل أي: الذي يفصل فيه بين الخلائق، ويتميز فيه الحق من الباطل، والضمير في (جمعناكم) للكفار في زمن النبي (ﷺ) وهم المكذبون بالقرآن الذين توعدهم الله بقوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ والمراد بالأولين كفار الأمم الماضية، والمعنى جمعناكم والسابقين قبلكم من المكذبين .

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣٦/١٤ .

(٢) سورة: المرسلات، الآيتان [٣٨، ٣٩] .

ثم قال الله بعد ذلك: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ " يشير بهذا إلى أنهم كانوا يدفعون الحقوق عن أنفسهم بضروب الحيل والكيد فكأنه قال: فههنا إن أمكنكم أن تفعلوا مثل تلك الأفعال المنكرة من الكيد والمكر والخداع والتلبيس فافعلوا " (١) .

والله تعالى أخبر أنهم في هذا اليوم لا قدرة لهم ولا حيلة، ولكن أخرج الكلام في صورة الأمر المعلوم الممكن توبيخاً لهؤلاء الكفار، وتذكيراً بسوء صنيعهم في الدنيا، وتسجيلاً عليهم بالعجز عن الكيد .

ومنه قوله تعالى حاكياً ما يقوله المؤمنون للعصاة السالكين في سقر: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ* إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ* فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ* مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ* حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (٢) .

رهينة: اسم بمعنى الرهن على وزن فعيلة، وهي من المصادر المقترنة بهاء كهاء التأنيث مثل الفعولة والفعالة، وليست تأنيث رهين الذي هو وصف، فلو قصدت الصفة لقيل (رهين)؛ لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث(٣).

أما أصحاب اليمين فقد تعددت الأقوال في تحديدهم قال الرازي في

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٤٨/٣ .

(٢) سورة: المدثر، الآيات [٣٨ – ٤٧] .

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٥٦/١٩، نظم الدر في تناسب الآيات والسور والإمام برهان الدين أبي الحسن البقاعي: ٢٣٥/٨، خرّج آياته وأحاديثه ووضع هوامشه: عبدالرازق غالب المهدي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

تفسيره: " ثم ذكروا وجوهاً في أن أصحاب اليمين من هم ؟ أحدهما: قال ابن عباس: هم المؤمنون، وثانيها: قال الكلبي: هم الذين قال [فيهم] الله تعالى " هؤلاء في الجنة ولا أبالي " وهم الذين كانوا على يمين آدم، وثالثها: قال مقاتل: هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم لا يرتهنون بذنبوهم في النار، ورابعها: قال علي بن أبي طالب (عليه السلام) وابن عمر: هم أطفال المسلمين، قال الفرَّاء وهو أشبه بالصواب لوجهين: الأول: لأن الولدان لم يكتسبوا إنما يرتهنون به، والثاني: أنه تعالى ذكر في وصفهم، فقال: ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وهذا إنما يليق بالولدان لأنهم لم يعرفوا الذنوب فسألوا ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾، وخامسها: عن ابن عباس: هم الملائكة " [1] .

وهكذا تعددت الآراء في تحديد أصحاب اليمين، وأن الفرَّاء – كما ذكر الرازي – يصوب رأي الإمام علي وابن عمر (م) ويعلل لذلك .

ولكني أميل إلى ما ذهب إليه ابن عباس وهو أن أصحاب اليمين: هم: المؤمنون يؤيد هذا: الجواب الذي أجاب به الكفار، وتلك الأشياء التي جعلوها سبباً في دخولهم سقر، وأن مثل هذه الأمور لا يُرد بها على أطفال، إذ إن أذهانهم لا تصل إليها ولا تعرف دورها في تحديد مصيرهم في الآخرة، كما أن كلمة (سلككم) وما توحي به من إدخال بعنف وقهر تعبير فوق مستوى الأطفال .

ومعنى الآيات: كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك إلاَّ أصحاب اليمين، فإنهم فكوّا رقاب أنفسهم بسبب أعمالهم الحسنة كما يفك الراهن رهنه بأداء الحق، وأن أصحاب اليمين في جناتهم التي أكرمهم الله بها يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين الذين في النار " وهذا التساؤل إنما يكون قبل أن يروهم فإذا ما رأوهم سألوهم بقولهم: ما سلككم في سقر ؟ أي ما الذي أدخلكم في

(١) مفاتيح الغيب: ١٨٥/٣٠ .

سقر، وجعلكم وقوداً لنارها وسعيرها " [١] .

فيجيبون بأن هذا العذاب بسبب ارتكابهم لأمور أربعة هي أصول الخطايا، إذ أنهم لم يكونوا من أهل الصلاة، ولم يطعموا المسكين، وأنهم كانوا يخوضون أي يخالطون أهل الباطل " مع الخائضين في أمر محمد (ﷺ)، وهو قولهم – لعنهم الله – كاهن، مجنون، شاعر، ساحر، وأنهم كانوا يكذبون بيوم الدين أي يوم القيامة. يوم الجزاء والحكم " [٢] .

وهنا أقول: هل خفى على أصحاب اليمين سبب دخول هؤلاء الكفار النار ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فِلمَ سألوهم وهم يعلمون حالهم ؟ ولِمَ أخرجوا الأمر المعلوم في صورة غير المعلوم والمستفهم عنه ؟

يجاب على ذلك: أنهم سألوهم توبيخاً وتعنيفاً وشماته، تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [٣]، ولتكون حكاية الله ذلك في كتابه موعظة للسامعين وذكرى للذاكرين .

وقد ذكر البقاعي في نظم الدرر تعليقاً حسناً على سبب سؤالهم عن الأمر الذي يعلمونه وجدت من الفائدة أن أذكره قال: " فكان هذا الخطاب مفهماً لأنهم لما تساءلوا نفوا العلم عن أنفسهم، وكان من المعلوم أن نفي العلم لأنهم شغلوا عن ذلك بأنفسهم وأنهم ما شغلوا – مع كونهم من أهل السعادة – إلاَّ لأن ذلك اليوم عظيم الشواغل، وكان من المعلوم أنه إذا تعذر عليهم علم أحوالهم من أهل الجنة وهم غير مريدين الشفاعة فيهم فلم يبق لهم طريق إلى علم ذلك لا يظن به التعريض للشفاعة إلاَّ السؤال منهم عن أنفسهم في أنهم يخاطبونهم بذلك فيعلمون علمهم ليزدادوا بذلك غبطة وسروراً بما نجاهم الله من مثل حالهم ويكثروا من

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور/ محمد سيد طنطاوي: ١٨٦/١٤ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٥٧/١٩ .
(٣) سورة: المطففين، الآية [٣٤] .

الثناء على الله تعالى بما وفقهم له، وليكون ذلك عظة لنا بسماعنا إياه " [١] .

ومما يؤيد كون المقام مقام توبيخ وتقريع للمسئولين تعبير السائلين بكلمة (سلككم) بدلاً من (أدخلكم) مثلاً إذ أن هذا يشير إلى أن الزج بهم في النار كان بسرعة وصعوبة وقهر، كما أنه يشير إلى مدى الضيق الذي هم حتى كأنهم السِّلْك في الثقب، ففي لسان العرب لابن منظور: " السَّلْكُ ادخال شيء تسلكُهُ فيه كما تطعن الطاعن فَتَسْلُكَ الرمح فيه إذا طعنته تِلْقَاءَ وجهه على سجتيه " [٢] .

وقد أشار إلى شيء من هذا البقاعي (/) عند تعليقه على حذف نون (نِك) في قولهم: ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ قال: " حذفوا النون دلالة على ما هم فيه من الضيق عن النطق حتى بحرف يمكن الاغتناء عنه، ودلالة على أنه لم يكن نوع طبع جيد يحثهم على الكون في عداد الصالحين، وكان ذلك مشيراً إلى عظيم ما هم فيه من الدواهي الشاغلة بضد ما فيه أهل الجنة من الفراغ الحامل لهم على السؤال عن أحوال غيرهم " [٣] .

وقد يسأل عن الأمر المعلوم توبيخاً ولكن لا لتوبيخ المسئول – كما سبق – وإنما لتوبيخ غيره كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [٤]. هذه الآية تحكي أحوال يوم القيامة حيث يجمع الله الأولين والآخرين للجزاء والحساب .

(ويوم) ظرف زمان والعامل فيه (واسمعوا) أي واسمعوا خبر يوم، وقيل: التقدير واتقوا يوم يجمع الله الرسل، وقيل: التقدير اذكروا أو احذروا يوم القيامة

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٣٦/٨ .
(٢) لسان العرب، مادة (سلك): ٤٤٣/١٠ .
(٣) نظم الدر في تناسب الآيات والسور: ٢٣٧/٨ .
(٤) سورة: المائدة، آية [١٠٩] .

حين يجمع الله الرسل " [١] .

ومعنى الآية اذكروا أو احذروا يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل الذين أرسلهم إلى مختلف الأقوام في شتَّى الأمكنة، فيقول لهم: ما الإجابة التي أجاب بها أقوامكم فينفون العلم عن أنفسهم ويقولون: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب .

وقد خصَّ الله الرسل وغيرهم بالذكر مع أن الرسل وغيرهم سيجمعون للحساب في ذلك اليوم، وذلك " لإبانة شرفهم وأصالتهم والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم بناء على ظهور كونهم أتباعا لهم " [٢] .

ومما لا شك فيه أن الله عالم بكل شيء ما كان وما هو كائن، وما سوف يكون، وطالما أن الأمر كذلك، فكيف يسأل الله الرسل يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم وهو بذلك أعلم – كما قالوا في جوابهم: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.

لابد وأن يكون هذا لاعتبار مناسب، ترى ما هذا الاعتبار ؟

الاعتبار المناسب هو التوبيخ، ولكن ليس توبيخ من وُجّه له السؤال وهم الأنبياء، وإنما لتوبيخ من كذبهم من أقوامهم . ومما يؤيد ذلك أن الله تعالى قال لرسله: ماذا أجبتم ؟ ولم يقل هل بلغتهم رسالتي ؟ وذلك " للإشعار بأن الرسل الكرام قد بلَّغوا رسالة الله على أكمل وجهٍ، وأن الذين خالفوهم من أقوامهم سيتحملون وزر مخالفتهم يوم القيامة " [٣] .

يضاف إلى ذلك أنه الله تعالى قال: ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ ولم يقال: ماذا أجاب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٣٢/٦، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الخامسة ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع والمثاني: ٥٤/٧ .

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور/ محمد سيد طنطاوي: ٣٣١/٤، ط: دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢م .

أممكم وفي ذلك كما يقول الألوسي: " مالا يخفى من الإنباء عن كمال تحقير شأنهم وشدَّة السخط والغيظ عليهم " (١) .

ولكن ثمة سؤال يفرض نفسه: وهو كيف يوجه السؤال إلى قوم ويراد به غيرهم ؟ وما الفائدة التي تحققها هذه الطريقة ؟

تجد الإجابة عن بعض هذا عند الزمخشري حين يقول: " فإن قلت: ما معنى سؤالهم ؟ قلت: توبيخ قومهم كما كان سؤال الموءودة توبيخاً للوائد " (٢) .

وهو بذلك يريد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾(٣) إذ أن سؤال الموءودة سؤال توبيخٍ لقاتلها؛ لأنها قتلت بغير ذنب، ومما لا شك فيه أن هذه الطريقة أشد في الإيلام للموبخ إذ لو ووجه بالتوبيخ لكان قاصراً عليه لا يعلم به أحد، ولكن الله أراد أن يفضحهم على رؤوس الأشهاد، وذلك عندما يجيب الأنبياء في الآية الأولى بالنفي أولاً تعرف الموءودة سبب قتلها في الآية الثانية المقيس عليها . يضاف إلى ذلك ما تفيده هذه الطريقة من إسقاطهم عن درجة الخطاب، وقد أشار الألوسي إلى شيء من هذا عند تعليقه على آية سورة التكوير قال: " سئلت بأي ذنب قتلت دون الوائد مع أن الذنب له دونها لتسليتها، وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها وإسقاطه عن درجة الخطاب، والمبالغة في تبكيته فإن المجني عليه إذا سئل بمحضر الجاني ونسبت إليه الجناية دون الجاني كان ذلك بعثاً للجاني على التفكير في حال نفسه، وحال المجني عليه فيرى براءة ساحته وأنه هو المستحق للعتاب والعقاب " (٤) .

---

(١) روح المعاني: ٥٥/٧ .
(٢) الكشاف للزمخشري: ٦٥٢/١ .
(٣) سورة: التكوير، الآيتان [٨، ٩] .
(٤) روح المعاني: ٥٣/٣٠ .

ومن هذا اللون أيضاً وهو السؤال عن الأمر المعلوم وإخراجه في صورة غير المعلوم لأجل التوبيخ، ولكن لا لتوبيخ المسئول، وإنما لتوبيخ غيره قوله تعالى في سورة المائدة أيضاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (١) .

هذه الآية امتداد للآية السابقة وفي سياقها، وقد اختلف في الوقت الذي قيل فيه ذلك، فالجمهور على أن هذا القول يكون من الله يوم القيامة، والبعض يرى أن الله قال له ذلك حين رفعه إليه .

قال القرطبي في تفسيره: " اختلف في تفسير هذه المقالة؛ فقال قتادة وابن جريج وأكثر المفسرين: إنما يقال له هذا يوم القيامة .

وقال السّدي وقُطْرُب قال له ذلك حين رفعه إلى السماء، وقالت النصارى فيه ما قالت، واحتجوا بقوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ (٢) فإن إذ في كلام العرب لما مضى .

والأول أصح؛ يدل عليه ما قبله من قوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ ﴾ (٣) وما بعدها ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ ﴾ (٤) وعلى هذا تكون إذ بمعنى إذا " (٥).

وقد وجه الله تعالى خطابه إلى عيسى (عليه السلام) في شأن القول باتخاذه وأمه إلهين من دون الله، والحق يعلم أن عيسى (عليه السلام) لم يقل ذلك وأنه سيجيب على

---

(١) سورة: المائدة، الآية [١١٦] .
(٢) سورة: المائدة، من الآية [١١٨] .
(٣) سورة: المائدة، من الآية [١٠٩] .
(٤) سورة: المائدة، من الآية [١١٩] .
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٦/٢٤١ .

هذا السؤال بالنفي، وهنا أقول: إذا كان الأمر كذلك فلم خاطبه بهذا الخطاب ؟ وما الغرض من السؤال في الآية ؟ والإجابة على ذلك: أن الخطاب وإن وجه إلى عيسى وقصد منه التوبيخ إلاَّ أنه ليس لتوبيخ عيسى، وإنما لتوبيخ وتبكيت الكفرة من قومه وكل من نسب إلى عيسى وأمه ما ليس بحق، وفضيحة هؤلاء القوم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

هذا وهناك أشياء تساعد على حمل الكلام على توبيخ قومه منها: تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في الآية، وهو يفيد تخصيصه بالخبر دون غيره فالقول واقع ولكن السؤال عمن وقع منه القول أهو عيسى أم غيره .

يضاف إلى ذلك: قوله ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ ﴾ دون اتخذوني ومريم وهذا توبيخ على توبيخ كما قال الألوسي: " وفي قوله ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ ﴾ دون اتخذوني ومريم توبيخ على توبيخ كأنه قيل: أأنت قلت ما قلت مع كونك مولوداً وأمك والدة والإله لا يلد ولا يولد " (١) .

ومنها أن يكون السؤال عن الأمر المعلوم في الآية لأجل تبرئة عيسى (عليه السلام) مما نسب إليه، وقطع الحجة على من يعتقد ذلك من الناس وقد أشار إلى ذلك ابن جزي الكلبي حين قال: " قال ابن عباس والجمهور هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ليرى الكفار تبرئة عيسى مما نسبوه إليه ويعلمون أنهم على باطل " (٢) .

---

(١) روح المعاني: ٦٥/٧ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي: ١٩٤/١، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الرابعة ١٤٠٣هـ ١٩٨٧م .

النكتة الثانية: المبالغة في المدح:

المبالغة في اللغة " أن تبلغ في الأمر جهدك "(١) وإذا ما أضيفت إلى المدح أفادت أن المتكلم يجهد نفسه في المدح حتى لا يترك لغيره شيئاً بعد مدحه .

ويعد من أشهر شواهد المبالغة في المدح بيت البحتري وهو (٢):

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ ∴ أمْ ابْتِسَامَتُهَا بالْمَنْظَرِ الضَّاحِي(٣)

البحتري يعلم أن الذي ظهر هو ابتسامتها التي تشبه البرق في الضياء واللمعان، ولكنه مبالغة في مدح ابتسامتها تجاهل وأظهر أنه التبس عليه الأمر، فلم يدر هل هذا اللمعان المشاهد من أسنانها عند الابتسام لمع برق أم ضوء مصباح أم ضوء ابتسامتها،، وهذا أبلغ في مدح ابتسامتها من أن يسلك الطريق المألوف المعهود، فيشبه ابتسامتها بلمعان البرق أو ضوء المصباح.

قال ابن يعقوب المغربي: " أفاد التجاهل المنزل منزلة الجهل غاية المدح وأنها بلغت إلى حيث يتحير في الحاصل منها ويلتبس المشاهد منها " (٤) .

ومثله قول البحتري في المدح أيضاً (٥):

أمَوَاهِبٌ هَاتِيكَ أمْ أنْوَاءُ ∴ هُطُلٌ وَأَخْذٌ ذَاكَ أمْ إِعْطَاءُ(٦)

---

(١) لسان العرب: ٤٨٧/١، مادة (بلغ) .

(٢) البيت مطلع قصيدة له في مدح الفتح بن خاقان ديوان البحتري: ٥٨/١، شرح: د/ يوسف الشيخ محمد، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٣) يقال: سَرَيْتُ سُرى وتسْرى وأسْرَيْتُ بمعنى إذا سرتُ ليلا والمنظر: المحل الذي ينظر وهو الوجه، والضاحي: الظاهر .

(٤) مواهب الفتاح: ٤٠٤/٤ (ضمن ضروح التلخيص).

(٥) ديوان البحتري: ٣١٩/٢، والبيت مطلع قصيدة له في مدح محمد بن علي بن عيسى القمي الكاتب .

(٦) النوْء: النجم الذي يكون به المطر، والتهطل والهَطَلان: المطر المتفرِّق العظيم القطر. ــ [لسان العرب (نوأ)، (هطل)] .

لم يرتض البحتري أن يسلك ما ألفه الشعراء فيشبه صاحبه بالمطر في كثرة العطاء، ولكنه مبالغة في مدح صاحبه سلك طريق التجاهل وبنى كلامه على التشكك وأظهر أن الناظر إلى عطاياه يتحير ولا يستطيع أن يفرق بينها وبين المطر .

وفي الشطر الثاني أشار البحتري إلى الحالة التي يكون عليها الممدوح وهو يعطي إذ أنه يكون فرحاً مسروراً بما يعطيه حتى إن الناظر إليه يتحير في أمره أهو يعطي أم يأخذ، فالعادة أن الإنسان يفرح بما يأخذ لا بما يعطي لكن ممدوح البحتري على العكس من ذلك حتى إن الناظر إليه يتحير أخذ هذا أم إعطاء .

والواقع أن مثل هذا اللون يرد كثيراً عند البحتري في مجال المدح تجده يقول في مدح ابن المُدَبَّر [(١)]:

أبَرْقٌ تَجَلَّى أمْ بَدَا ابْنُ مُدَبَّرٍ ∴ بِغُرَّةِ مَسْؤولٍ رأيَ الْبِشْرَ سَائِلُهُ(٢)

المعنى الذي يرمى إليه البحتري هو وصف الحالة التي يكون عليها الممدوح عندما يسأل، وأنه يكون طلق الوجه فرحاً مستبشراً، وأن سائله يرى دلائل ذلك على وجهه، وأمر كهذا يناسبه أن يشبه وجه الممدوح بالبدر في الضياء واللمعان، ولكن البحتري مبالغة في المدح أخرج كلامه في صورة من التبس عليه الأمر، فلم يستطع أن يفرق بين طلعة الممدوح والبرق في الضياء واللمعان .

---

(١) ديوان البحتري: ٢١٥/١ .

(٢) الغُرَّة بالضم: بياض في الجبهة ... ورجل أغَرُّ الوجه إذا كان أبيض الوجه من قوم غرٍّ وغُرَّان. [لسان العرب (غرر): ٤٣/١٠]. البشر: الطلاقة .

ومثله قول البحتري أيضاً [١]:

إذَا نَظَرَ الْوُفُودُ إِلَيْهِ قَالُوا ∴ أَبَدْرُ اللَّيْلِ أَمْ شَمْسُ النَّهَارِ

يمدح البحتري المعتز بالله فيقول: إن الوافدين عليه عندما ينظرون إليه يتساءلون عن طلعته ما هذا أهو قمر الليل أم شمس النهار؟ وهم يعرفون أنه الممدوح ولكنه مبالغة في مدحه نزلهم منزلة من لا يفرق بين وجهه والشمس والقمر .

ومن المبالغة في المدح قول ابن مليك الحموي [٢]:

أومِيضُ بَرقٍ بالحمى يُتَوَّهم ∴ أم ثَغْرُ صبحُ نوالِهِ يتبسَّمُ

وسحابُ مُزْنٍ أمْ غمامٌ ماطرٌ ∴ أمْ بحرُ جَودٍ بالمكارِمِ مُفْعَمُ

وأخُو حُروبٍ عِنْدَ مُشْتَبَكِ الْقَنَا ∴ أم فيلقٌ قد سارَ وَهْو عَرَمْرَمُ

ومحلهُ حرمٌ غدا أمْ ملجأٌ ∴ أمْ كعبةُ الرَّاجينَ حينَ تَيَمَّموا [٣]

---

(١) البيت من قصيدة له في مدح المعتز بالله وقبله:

إِمَامُ هُدىً يُحَبَّبُ في التَّأنِي ∴ وَيَحْسُنُ في السَّكِينَةِ والْوَقَارِ

[الديوان: ٣٦١/٢] .

(٢) ابن مليك الحموى هو على بن محمد بن مليك الحموي ولد بحماة سنة ٨٤٠هـ ١٤٣٦م، قدم دمشق وتوفى بها ودفن بمقبرة باب الفراديس سنة ٩١٦هـ ١٥١٢م. [ينظر: معجم أعلام شعراء المدح النبوى لـ محمد أحمد درينقة، صـ ٢٧٠، تقديم: ياسين الأيوبى، نشر مكتبة دار الهلال، ط: أولى من دون تاريخ].

(٣) ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم: ١٢٢/٥.

ـ ومض البرق وغيره يمض ومضا ووميضا أي لمع لمعا خفيفاً، والثغر: الفم، وقيل هو اسم الأسنان كلها ما دامت في منابتها قبل أن تسقط، وقيل: هو مقدم الأسنان، السحابة: الغيم، والمزنة: السحابة البيضاء. الغمام: الغيم الأبيض، وإنما سمي غماماً لأنه يغم الأرض أي يسترها . الجوْد: المطر الواسع الغزير، وقيل الجود من المطر الذي لا مطر فوقه البتة، الشبك: الخلط والتداخل، ومنه تشبيك الأصابع، الفَمْمُ والأفعَم: الممتلئ وقيل: الفائض امتلاء، القناة: الرمح، الفيلق: الجيش العظيم، العرمرم الكثير من كل شيء وجيش عرمرم أي كثير، والحلَّة:

أخرج ابن مليك هنا الأمور المعلومة في صورة أشياء تحير في أمرها ولم يتحقق منها، فالذي لاح أمامه أهو البرق في ضيائه ولمعانه أم ثغر الممدوح وابتسامته لحظة الإنفاق؟ وهذا الكرم الذي يشاهده أهو ذلك السحاب الممتلئ بالماء أم الغيم الأبيض الممطر أم هو ذلك البحر في سعته وجوده وعدم انقطاع عطائه ؟

وهذا الفارس الفاتك الشجاع الذي يخوض غمرات الموت أهو فرد أم جيش عظيم قوي، ومحله ومجلسهُ الذي يجتمع فيه الناس عنده ليس مجلساً كغيره من المجالس وإنما هو حرم لا تنتهك حرماته وكعبه يقصدها الناس من كل مكان .

وابن مليك وإن كان يريد تشبيه ثغر ممدوحه بالبرق في الإشراق واللمعان، وكرمه بالسحاب والغمام والبحر في الجود وكثرة العطاء، ويشبهه بالجيش الكثير العظيم القوي في الشجاعة، ومحله ومنزله بالحرم والكعبة إلاَّ أنه مبالغة في المدح تناسى كل هذا، وبنى كلامه على التجاهل، وأظهر تشككه وتحيره في عدم التفرقة بين ما هو مشبه وما هو مشبه به، وهو بهذا أعطى الصورة التشبيهية قوَّة وتأثيراً يقول ابن رشيق معلقاً على مثل هذا " فأنت ترى كيف موقع هذا الشك من اليقين ؟ وكيف حلاوته في الصدر وقبوله فإنه لو كان يقيناً ما بلغ هذا المبلغ " (١).

مجلس القوم لأنهم يحلونه، والحلة: مجتمع القوم، والملجأ: المعقل، الكعبة: البيت المربع وجمعه كِعاب، والكعبة البيت الحرام منه، والحرمة: ما لا يحل لك انتهاكه .

ـ [ينظر في كل ما سبق، لسان العرب بالترتيب المواد الآتية (ومض) (ثغر) (سَجَتَ) (مزن) (غم) (جود) (فعم) (شبك) (قنا) (فلق) (حلل) (لجأ) (كعب) (حرم)] .

(١) العمدة في محاسن الشعراء وآدابه ونقده: ٦٧/٢ .

ومما جاء من باب المبالغة في المدح ما قاله القاضي الفاضل في مدح الملك العادل [١]:

أهذه سَيَرُ في المجد أم سُوَرُ ∴ وهذه أنجم في السعد أم غررُ

وأنمل أم بحار والسيوف لها ∴ موج وافْرَنْدُها في لجِّها درُ

وأنت في الأرض أم فوق السماء وفي ∴ يمينك البحر أم في وجهك القمرُ [٢]

أخرج المادح الأمور المعلومة في صورة أشياء لم يتحقق منها، فأخبار الممدوح وأفعاله هل هي مجرد أخبار وسير أم هي مجموعات من الفضائل ؟ وحظوظ مادحيه تضيء لهم وتكشف عوزهم كالنجم في الليل .

ثم انتقل إلى كرمه وعطائه فسأل متجاهلاً هل أنامله التي يعطي بها مجرد أنامل أم بحار سخية في الجود والكرم ؟ والسيوف التي في يده ووشى تلك السيوف وماؤها ورونقها درر بيض .

والممدوح في منزلته ومكانته هل هو مع الناس في الأرض أم في سماء تليق به شرفاً وعزًا ؟

وما في يمينه من عطايا يغدقها على الناس أهي عطايا أم البحر كرما وتدفقاً ؟ وجمال وجهه وما به من طلاقه وحسن أهي البشر والبسط أم أن في وجهة قمرا ؟

ومما لا شك فيه أن الشاعر رغم مجاوزته للحد في بعض الصفات التي

---

(١) الأبيات في خزانة الأدب لابن حجة: /٢٧٧ غير منسوبة، وفي أنوار الربيع لابن معصوم ١٢٣/٥، ١٢٤، منسوبة للقاضي الفاضل في مدح الملك العادل وكذلك في الكشاف للزمخشري: ٣١٥/٤ .

(٢) السيرة: الطريقة، والسورة: المنزلة والجمع سُوَرُ وسُوْر .

ـ الإفرند والفرند : لمعان السيف وتموجه، اللج: الوسط والعمق .

خلعها على الممدوح إلاَّ أن طريقته التي سلكها وبناءه الكلام على هـذا التسـاؤل وإخراجه للأمر المعلوم في صورة غير المعلوم، وترقيه في المدح وانتقاله مـن حالة إلى حالة أخرى . كل هذا أكسب الصورة جمالاً وقوَّة وتأكيـداً فـي إثبـات الصفات للممدوح .

ومن المبالغة في المدح قول المتنبي [١]:

أَمُسَاوِرٌ أمْ قَرْنُ شَمْسٍ هَذا ∴ أمْ لَيْثُ غَابٍ يَقْدُمُ الأُسْتَاذَا [٢]

يريد المتنبي أن يشبه ممدوحه بقرن الشمس في الحسن، وبليث الغاب في الشجاعة، ولكنه لم يصرح بذلك وإنما ترك التشبيه، وبنى كلامه على التجاهـل، وأظهر أن ممدوحه بلغ من الحسن والشجاعة مبلغاً حتى إن الناظر إليه يلتـبس عليه الأمر، فلا يستطيع أن يفرق بينه وبين قرن الشمس أو ليث الغـاب، وهـو بهذا أعطى الصورة التشبيهية قوَّة وتأثيراً، وهذا أبلغ وأوقع من أن يشبهه بقرن الشمس وليث الغاب صراحة فهذا أمر ألفه الناس .

ومنه قول مجنون ليلى [٣]:

أقـولُ لظـبيٍ مـرَّ بـي وهـو راتِـعٌ ∴ أأنـتَ أخُـو ليلـى فقـالَ يُقـالُ

---

(١) البيت مطلع قصيدة له في مدح مساور بن محمد الرومي. [ينظر: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبى البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان: ٨٢/٢، ضـبط وتصـحيح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة: مصطفى البابي الحلبي، ط: الأخيرة ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

(٢) قرن الشمس: أولها عند طلوع الشمس وأعلاها، وقيل: أول شـعاعها، وقيـل: ناحيتهـا [اللسان (القرن)]، والغابة من الرماح ما طال منها وكان لها أطـراف كـأطراف الأجمـة، وقيل: هي الرماح إذا اجتمعت والأستاذ. هو الوزير في بعض لغة أهل الشـام . [ينظـر: شرح أبي البقاء العكبري: ٨٢/٢] .

(٣) ديوان مجنون ليلى صـ٨٩، شرح وضبط: د/ عمر فاروق الطباع، ط: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان .

أبــا شِــبَه لَيْلــى إنَّ ليلــى مريضــةٌ ∴ وأنـــتَ صـــحيحٌ إنَّ ذا لمحـــالُ[1]

المتعارف عليه أن تشبه المرأة بالظبية في جمالها وهذا ما ألفه الشعراء حتى قال من قال:

هِيَ الظَّبيُ جيداً والغزالةُ مُقْلَةً ...

ولكن قيس بن الملوح يرى أن أصل الجمال متحقق في ليلاه، وأن جمـــال الظبي مستمد من جمالها، لذا تجده قد سلك طريقاً آخر وبنى كلامه على التشـــكك والتساؤل فعندما شاهد الظبي سأله أأنت أخو ليلى، وسؤاله بهذه الطريقـــة يـــدلل على أنه يرى أن جمالها أصل يستمد منه، وفي رد الظبي يقوله: يقال ما يشـــير إلى أن جمال الظبي دون جمال ليلى .

وهكذا نرى أن بناء الكلام على التساؤل أخرج الصـــورة مـــن الابتـــذال، وأعطاها قوَّة وتأثيراً في النفس .

(١) الرّتعُ: الأكل والشرب رغداً في الريف (اللسان رتع) والمحال من الكلام ما عُدِل بـــه عـــن وجهه (اللسان حول) .

النكتة الثالثة: المبالغة في الذم:

أشرت سابقاً إلى أن المبالغة في اللغة تعني أن تبلغ في الأمر جهدك وأنها قد تضاف إلى المدح فيكون المقصود بها أن المتكلم يجهد نفسه في المدح وهنا أقول: إن المبالغة إذا أضيفت إلى الذم أفادت أن المتكلم أجهد نفسه في ذم مبغوضه فلم يترك لغيره شيئاً بعد ذمه، ولعل من أشهر شواهد المبالغة في الذم ما نسب إلى زهير في هجاء آل حصن بن حذيفة الفزاري قال [١]:

وَمَا أدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أدْرِي ∴ أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

زهير يعرف عين المعرفة أن آل حصن ينسبون إلى جنس الرجال لا إلى جنس النساء، ولكنه تجاهل هذه المعرفة، وأظهر أنه قد التبس عليه أمرهم في الحال – وإن كان سيظهر له في المستقبل – هل هم رجال أم نساء " وهذا ذم أبلغ ما يكون الذم إذ لم يختلط عليه الأمر إلاَّ لأن سلوك رجالهم كسلوك نسائهم " [٢] .

هذا ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن البعض يرى أن مقابلة القوم بالنساء في البيت فيها دلالة على أنها لجماعة الرجال خاصة دون النساء

---

(١) آل حصن هو حصن بن حذيفة الفزاري، وقد ذكر محقق الديوان أن سبب هجاء زهير لهم أن رجلاً من بني عبد الله بن غطفان نزل ببني غليب، وهم آل بيت من كلب من بني تميم فأكرموه، وأحسنوا جواره، وكان رجلاً مولعاً بالقمار، فنهوه عنه فأبى إلاَّ المقامرة، فقمر مرَّة فردوا عليه، ثم قمر أخرى فردوا عليه، ثم قمر الثالثة فلم يردوا عليه، ويقال كذلك: إنه رهن امرأته وابنه فكان الفوز عليه، فترحل عنهم وشكا ما صنعوا به إلى زهير، والعرب حينئذ يتقون الشعراء اتقاءً شديداً فهجاهم زهير وكان من جملة ما قال هذا البيت. [ينظر: ديوان زهير بن أبي سلمى صـ١٩، ٢٣، تحقيق: الدكتور/ محمد محمود، ط: دار الفكر العربي، ط: الأولى ١٩٩٥م] .

(٢) البديع من المعاني والألفاظ للدكتور/ عبد العظيم المطعني صـ٧١، ط: الأولى، ط: دار وهدان للطباعة .

مستأنسين في ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

يقول الزمخشري فى كشافه: " واختصاص القوم بالرجال صريح فى الآية وفى قول زهير: أقوم آل حصن أم نساء ؟ " (٢).

أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣) والمراد بالقوم الجماعة من الناس الذين يجمعهم موطن واحد أو نسب واحد برجالهم ونسائهم وأطفالهم فقد قالوا إن هذا وارد على سبيل التغليب حيث غلب الرجال على النساء كما قيل قوم عاد وقوم فرعون والمراد بهم الذكور الإناث (٤) .

والذي أميل إليه أنه ليس هناك إشكال بين حمل القوم على الرجال دون النساء في البيت وآية سورة الحجرات، وأن يراد بها الرجال والنساء معاً في سورة نوح .

ففي آية نوح اكتفى بذكر القوم وهم جماعة نوح وآله ومعلوم بداهة أن النبي عندما يُرْسل إلى قومه رجالاً ونساءً وليس إلى الرجال دون النساء وعليه فلا غضاضة في حمل القوم على الرجال والنساء معاً أو في طيّ النساء في لفظة القوم الدالة على الرجال أما آية الحجرات فقد أفرد فيها كل فريق على حدة زيادة

---

(١) سورة: الحجرات، آية [١١] .

(٢) الكشاف: ٥٦٥/٣، وينظر: عروس الأفراح، ومواهب الفتاح، وحاشية الدسوقى: ٤٠٥/٤ (ضمن شروح التلخيص).

(٣) سورة: نوح، آية [١] .

(٤) ينظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي: ٤٠٥/٤، روح المعاني للآلوسي: ٢٤٧/٢٦ .

في الاهتمام بأمر المنهي عنه وهو السخرية والهزء بالآخرين والذي قد يصدر من أفراد الرجال وأيضاً من أفراد النساء كل على حدة يضاف إلى ذلك أنه لو اكتفى بذكر الرجال فقط لأحدث ذلك توهماً مفاده أن من لم يذكر ليس مقصوداً بالنهي.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره: " وخصّ بالنساء بالذكر مع أن القوم يشملهم بطريق التغليب العرفي في الكلام كما يشمل لفظ " المؤمنين " المؤمنات في اصطلاح القرآن بقرينة مقام التشريع فأن أصله التساوي في الأحكام إلاَّ ما اقتضى الدليل تخصيص أحد الصنفين به دفعاً لتوهم تخصيص النهي بسخرية الرجال إذ كان الاستسخار متأصلاً في النساء " (١) .

ومن المبالغة في الذم بطريق التجاهل قول جرير بن عطية الخطفي في هجاء التيم قبيلة الشاعر عُمَرْ بنُ لجأ التيمي (٢) .

لِئَامُ العَالَمِينَ كِرَامُ تَيْمٍ ∴ وَسَيِّدُهُمْ وإِنْ زَعموا مَسودُ
وإِنَّكَ لَوْ لَقِيتَ عَبيدَ تَيْمٍ ∴ وَتَيْماً قُلْتَ أيّهُمُ العَبِيدُ
أرَى لَيْلاً يُخَالِفُهُ نَهَارُ ∴ وَلُؤْمُ التَّيْمِ ما اخْتَلَفَا جَدِيدُ (٣)

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٤٧/٢٦ .

(٢) تيم بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة بن ألياس بن مُضَر من بطن يقال لهم بنو أيسر قبيلة الشاعر عُمَرْ بنُ لجأ الذي كان يهاجي جريراً. [ينظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة صـ٤٥٢، ٤٥٣، تحقيق: د/ مفيد قميحة، الأستاذ/ نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م] .

(٣) شرح ديوان جرير لإيليَّا الحاوي صـ١٩٤، ط: الشركة العالمية للكتاب، ط: الثانية ١٩٩٥م.

ـ المسود: الذي ساده غيره والسيد: يطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومحتمل أذى قومه والزوج والرئيس والمقدّم، والمناسب للسياق الرئيس. [لسان العرب، مادة (سود)] .

في هذه الأبيات يحقر جرير من شأن التيم، ويقلل من قدرهم، فأفضلهم في مقياس الشرف والفضل يعد ألأم الناس، والذين تسودوا إنما هم عبيد لغيرهم .

ولم يقف جرير عند هذا الحد في هجاء التيم، وإنما جعلهم وعبيدهم سواء في الخسّة والرزيلة وسوء الخلق حتى إن الناظر إليهم لا يستطيع أن يفرق بين السيد والعبد، وأن لؤمهم لا يفارقهم، وإنما يتجدد طالما هناك ليل يعقبه نهار .

وجرير وإن أراد أن يشبههم بعبيدهم إلاَّ أنه مبالغة في ذمهم أخرج كلامه في صورة المتشكك الحائر، وهدفه من ذلك أن يشير إلى تحقق صفات العبيد فيهم، ورسوخها في طبعهم تحققاً يجعل الناظر إليهم لا يستطيع معرفة العبد من سيده، وهذا – كما قلت سابقاً – أبلغ في الذم والإهانة.

قال ابن رشيق معلقاً على هذا البيت: " فلو قال " عبيدهم " أو " خير منهم " لما ظن به الصدق، فاحتال في تقريب المشابهة؛ لأن في قربها لطافة تقع في القلوب، وتدعو إلى التصديق " [١] .

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٢/٥٤ .

النكتة الرابعة: التدله لحب أو غيره:

الوله والدله في اللغة يدوران حول معنى واحد وهو التحير وذهاب العقل لعشق أو همٍّ، فبه يظهر صاحبه بصورة من لم يستطع تحديد المراد؛ لأن الأمر الذي أمامه قد استولى على عقله وسحر لُبَّه وفكره .

قال ابن منظور: " الدَّلْه والدَّلَهُ: ذهاب الفؤاد من همٍّ أو نحوه كما يدله عقل الإنسان من عشق أو غيره، وقد دلَّهه الهمُّ والعِشْق فتدلَّه ... ويقال: دلَّهه الحبُّ أي حيَّره وأدهشه ... والتدله: ذهاب العقل من الهوى .

والوله: ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف والوله يكون من الحزن والسرور " (١) .

هذا؛ ويعد من أشهر شواهد التدله وخاصة في الحب هذا البيت المشهور والذي نسب لأكثر من شاعر:

بِاللهِ يا ظَبْيَاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لنَا ∴ لَيْلَايَ مِنْكُنَّ أمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ (٢)

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (وله): ٤٩١٩/٦ .

(٢) البيت في الصناعتين لأبي هلال العسكري صـ٤١٢ غير منسوب، وكذلك في قانون البلاغة لابن حيدر البغدادي صـ١٣٥، والتبيان في علم البيان لابن الزملكاني صـ١٨٩، ومعيار النظار في علوم الأشعار صـ٣١٧، وأنوار الربيع لابن معصوم: ١٢٨/٥ .
وفي العمدة /٦٦ منسوب للعرجي، وكذلك في البديع في نقد الشعر صـ٩٣ .
وفي تحرير التحبير صـ١٣٥، وخزانة الأدب لابن حجة: ٢٧٩/١ .
وفي حدائق السحر للوطواط منسوب لقيس بن الملوح صـ١٥٨، وكذلك في تلخيص المفتاح للخطيب القزويني صـ١٨١ .
وفي الإيضاح: ٦٧/٤، مع البغية، منسوب للحسين بن عبد الله الغَزيِّ وهو في ديوان قيس ابن الملوح في مقطوعة بعنوان: " ليلاي منكن أم ليلى من البشر " .
[ينظر: مجنون ليلى دراسة أدبية لشعره وشرح ديوانه صـ١٦٦ " محمود عاصي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان] .

من المسلم به أن ليلى التي يسأل عنها الشاعر من جنس البشر لا من جنس الظبيات، والشاعر يعرف ذلك تمام المعرفة، ولكن شدَّة حبه ليلى وولهه بها هو الذي أفقده عقله وسحر لبه فأصبح لا يدري أليلاه من جنس الظباء أم جنس البشر؟

ومن يعيد النظر في البيت يرى أن صياغته بجملتها تشير إلى مدى الحيرة والوله التي أصابت الشاعر، فلقد صدّر بيته بالقسم على الظبيات مستعطفاً إياهن ليجبنه عن ليلاه، كما أنه أضافها إلى نفسه ثم أعاد ذكر اسمها مرَّة ثانية مظهراً إياه في موضع تقتضي الصياغة اضماره، وهذا دلالة على تلذذ الشاعر باسمها وارتياحه لذكرها .

فاستعطافه للظبيات وقسمه عليهن وإضافته ليلى إلى نفسه وتكرار اسمها كل هذا يدل دلالة كاملة على الحالة التي وصل إليها من شغف وولهه بليلى .

هذا ويمكن حمل البيت على المبالغة في مدح ليلى وأن شدَّة الشبه بين الظبيات وليلى جعل الشاعر يسأل سؤال المتشكك الجاهل.

تجد هذا عند السبكي ثم ابن يعقوب من بعده .

فالسبكي بعد أن حمله على التدله قال: " والذي يظهر أن هذا من المبالغة في مدح ليلى وأنه من القسم السابق " [١] وهو يقصد المبالغة في المدح .

وابن يعقوب المغربي يقول: " ويجوز أن يكون هذا المثال لنكتة المبالغة في مدحها بالحسن حيث صارت إلى حال الالتباس الظبيات " [٢] .

والذي أراه أن حمل البيت على التدله في الحب أو المبالغة في مدح ليلى لا يغير من الأمر شيئاً، فهو في الحالتين وله ودله وولهان في حب صاحبته

---

(١) عروس الأفراح: ٤٠٦/٤ (ضمن مجموعة الشروح) .
(٢) مواهب المفتاح: ٤٠٦/٤ (ضمن مجموعة الشروح) .

فكونه يحرص على إظهار تحيره وتدهشه أو يحرص على المبالغة في إبراز جمالها وحسنها نكتتان لا تزاحم بينهما ولا مضادة .

ومن التدله في الحب قول عمر بن أبي ربيعة في صاحبته هند [١]:

رأيتُ بِجَنْبِ الْخَيْفِ هنداً فرَاقَنِي ∴ لِهَا جيدُ رِئْمٍ زينتهُ الصَّرَائِم

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بالْمُحصّبِ مِنْ مِنىً ∴ وَلى نَظَرٌ لَوْلاَ التَّحَرُّجُ عَازِمُ

فَقُلْتُ أشَمْسُ أمْ مَصَابِيحُ بيعَةٍ ∴ بَدَتْ لَكَ تَحْتَ السِّجْفِ أمْ أنْتَ حَالِمُ

مُهَفْهَفَةٌ غَرَّاءُ صِفْرٌ وِشَاحُها ∴ وَفِي الْمِرْطِ مِنْهَا أهْيَلٌ مُتَرَاكِمُ

بَعِيدَةُ مَهْوَى الْقُرْطِ إمَّا لِنَوْفَلٍ ∴ أبوها وإمّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمُ [٢]

رأى عمر بن أبي ربيعة صاحبته هنداً عند الخيف قرب منى، فحلت في عينيه، واستولت على عقله وفؤاده ببياضها المشرق، وعنقها الطويل الذي يشبه عنق الظبي، وبخصرها الدقيق، وقوامها الممشوق، وأردافها العظيمة .

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة صـ٣١٤ تحقيق: د/ فايز محمد، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثالثة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .

(٢) الخيف: اسم موضع قرب مني، الجيد: العنق، الرئم: الظبي الأبيض، الصرائم: مفردها الصريمة وهي حيث ينتهي الرمل وتظهر الشجيرات والحشائش، المحصب: موضع رمي الجمار بمنى وقيل هو الشِّعْبُ الذي مَخْرَجَهُ إلى الأبْطُحْ بين مكة ومنى يُنام فيه ساعة من الليل ثم يخرج إلى مكة. التخرج: ارتكاب الذنب واقتراف الإثم. عازم: مصمم، ووردت عارم – بالراء – أي متجاوز لحدود العفة المطلوبة في ذلك المقام. البيعة: بالكسر كنيسة النصارى، وقيل: كنيسة اليهود والجمع بِيَعٌ. السجف: الأستار، والمهفهفة: الخميصة البطن الدقيقة الخصر، وامرأة مهفهفة أي ضامرة البطن. الصفر: الخالي. المِرْط: الثوب الذي يؤتزر به – الأهيل المتراكم: الكثيب من الرمل وأراد بذلك ردفيها، مهوى القرط: المسافة بين شحمة الأذن والكتف، والقرط: حلية توضع في الأذن. نوفل، عبد شمس وهاشم: أسماء الأسر الكريمة في قريش .

وفي البيت الثالث يصف الشاعر حاله وما أصابه من التحير والتدهش عندما كشفت هندٌ الستار عن وجهها، ولاح أمام ناظريه ذلك الوجه المشرق الجميل فأخذ يسأل متحيراً: ما هذا الذي أراه تحت الأستار أهي الشمس في نورها وإشراقها ؟ أم نور المصابيح التي توقد في بيع النصارى ؟ أم هو غير ذلك كله ؟ إنه وجه صاحبته هند الذي لاح وظهر فجأة من بين الأستار .

ولما كان عمر لا يرى فرقاً بين الشمس والمصابيح ووجه صاحبته هند في النور والضياء والحسن بنى كلامه على هذا التساؤل الحائر وأوهم أنه لم يستطع أن يفرق بين الشمس وضوء المصابيح ووجهها .

هذا ومن يعيد النظر في الأبيات يرى أنها قد عمرت ببعض الصور البيانية التي استعان بها الشاعر لإبراز محاسن صاحبته منها: التشبيه في قوله (لها جيد رئم) حيث شبه عنق صاحبته بعنق الظبي في طوله وجماله .

والكناية عن صفة في قوله (صفر وشاحها) حيث كنى بذلك عن ضمور بطنها ودقة خصرها .

والاستعارة في قوله (أهيل متراكم) حيث استعار الكثيب من الرمل للأرداف بجامع الكبر .

وكذلك الكناية عن صفة في قوله (بعيدة مهوى القرط) حيث أراد من وراء ذلك طول عنق صاحبته وهي صفة مدح عند العرب .

ومنه قول ابن المعتز [1]:

جاء المشيبُ فما بعثتُ إليه ∴ ومَضَى الشباب فها بكايَ عليهِ

(١) ديوان ابن المعتز: ٢٩٣/١، شرح: مجيد طراد، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

كـمْ لَيْلَـةٍ عانَقْـتُ فيهـا بَـدْرَهَا ∴ حَتَّـى الصَّـبَاح مُوَسَّـداً كَفَّيْـهِ

مـا زِلْـتُ أشـربُ خَمْـرةً مِـنْ ريقـهِ ∴ وَتَحِيَّتِـي تُفَّاحَتَـا خَدَّيْـهِ

وَسَـكِرْتُ لا أدْرِي أمِـنْ خَبَـلِ الهَـوى ∴ أمْ كَأْسِـهِ أمْ فِيـهِ أمْ عَيْنَيْـهِ (١)

يبكي ابن المعتز على شبابه الذي مضى وحلَّ محله الشيب، ثم يذكر أيام لهوه وصباه، فكثيراً ما قضى ليله حتى الصباح وهو يعانق محبوبته، التي تشبه البدر حسناً وجمالاً، وكثيراً ما مصَّ أو شرب ريقاً يشبه الخمر عذوبة ورقة، وكثيراً ما قبَّل خدَّاً يشبه التفاح حمرة ونضارة .

محبوبة بهذه الصفات جديرة بأن تستولي على عقل صاحبها ومشاعره ولبه وفؤاده، وقد كان هذا من ابن المعتز لذا تجده في البيت الأخير يصور مدى سيطرة حبها على عقله وقلبه، ويبين مدى ذهوله وتحيره، فلقد سكر ولم يدر سبب هذا السكر أهو جنون العشق والغرام أم من ريقها الذي يشبه الخمر أم من نظرات عينها الآثرة ؟

ومن يعيد النظر في الأبيات يجد أنها قد عمرت ببعض الصور البيانية، تجد الاستعارة في قوله: (كم ليلة عانقت فيها بدرها) فقد استعار البدر لمحبوبته بجامع الحسن والبهاء استعارة تصريحية أصلية .

وكذلك الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: (أشرب خمرة من ريقه) فهو لم يشرب خمراً وإنما شرب ريقاً جميلاً عذباً يشبه الخمر، والتشبيه في قوله (تفاحتا خديه) فهي تحييه بخدها الذي يشبه التفاحة في لونها وجمالها .

ومن التدله في الحب قول ابن هاني الأندلسي (٢):

---

(١) الشيب: بياض الشعر، والمشيب: دخولُ الرَّجُلِ في حدّ الشَّيْب من الرجال، الشباب: الفتاء والحداثة . الريق: ماء الفم غُدْوة قبل الأكل، والريق الرُّضاب، الخبل: الجنون.

(٢) ديوان ابن هاني الأندلسي صـ٢٥٢، ط: دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

فَتَكَـــاتُ طَرْفِـــكِ أمْ ســـيوفُ أبيـــكِ ∴ وكـــؤوسُ خمـــرٍ أمْ مَراشِـــفُ فيـــكِ

أجـــلادُ مُرْهَفَـــةٍ وَفَتْـــكُ مَحـــاجِرٍ ∴ مـــا أنـــتِ راحمـــةٌ ولا أهلـــوكِ

يـــا بنـــتَ ذا السَّـــيْفِ الطويـــلِ نِجَـــادهُ ∴ أكـــذاَ يجـــوزُ الحكـــمُ في ناديـــكِ[1]

الأبيات مطلع قصيدة للشاعر في مدح يحيى بن علي الأندلسي، وقد بدأها حائراً متسائلاً عن هذا الذي أصاب قلبه، وجرح فؤاده، وفعل به ما فعـــل: أهـــو طرف المحبوبة ونظراتها الآسرة أم سيوف أبيها المدمية ؟ وهذا الذي أدار عقله وأسكر لبه أهو رضابها المعسول ومراشف فمها أم كـــؤوس الخمـــر ؟ واســـتمر الشاعر على حالته من التجاهل فأنكر على صاحبته أن تجتمع عليه أجلاد السيوف المرهفة التي سلها أهلها لحربه، وآثار عيونها التي تفتك به، فإن وقع نظراتهـــا عليه كوقع سيوف أهلها كلتاهما جارحة قاتلة، والمحبوبة صوّبت نظرتهـــا إليـــه فجرحته، ولم ترحمه مثل أهلها حين أعلنوا سهامهم في وجهه ولم يرحموه .

وفي البيت الأخير عرَّج الشاعر على صفة أهلهـــا فهـــم أهـــل وجاهـــة وشرف وشجاعة مكنياً عن ذلك بقوله (يا بنت ذا السيف الطويل نجاه) فطول نجاد السيف كناية عن طول القامة وطول القامة دلالة على الشجاعة " وقوم كهـــؤلاء ينتظر منهم العدل والنصفة، ولكنهم جاروا عليه، وقضوا بحرمانه مـــن لقائهـــا، فاستحقوا أن ينكر عليهم هذا الجور، وأن ينكر على محبوبتـــه انصـــياعها لهـــذا الجور ولجؤها إلى الصد والهجران " [2] .

---

(١) المراشف: أمكنة الرشف والمص ويقصد بها الشفاة، المرهفة: يقصد السيوف وهي مرهفة أي حادة، المحاجر: العيون النجاد: حمالة السيف .

(٢) النبع الصافي للأستاذ الدكتور/ محمد السعدي فرهود صـــ٩١، دار الطباعة المحمديـــة، ط: الأولى ١٤٠٠هـــ ١٩٨٠م .

ومن شواهد التدله في الحب قول المتنبي [١]:

أَرِيقُكُ أمْ مَاءُ الغَمَامَةِ أمْ خَمْرُ ∴ بِفِيَّ بُرودُ وَهُوَ فِي كَبِدِي جَمْرُ

أذَا الغُصْنُ أمْ ذا الدّعْصُ أمْ أنتِ فِتْنَةُ ∴ وَذَيَّا الَّذِي قَبَّلْتُهُ الْبَرْقُ أمْ ثَغْرُ

رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أهْوَى بِلَيْلٍ عَوَاذِلي ∴ فَقُلْنَ نَرَى شَمْساً وَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ [٢].

الأبيات مطلع قصيدة له في مدح أبي أحمد عبيد الله بن يحيى المنبجي وقد بدأها بالغزل فقال قد شككت فيما ذقته من فيك أهو ريقك الرقيق العذب أم ماء المطر لأنه أعذب المياه وأحلاها أم الخمر ؟

وهذا الذي يراه أمامه أهو غصن شجرة أم قوامها المعتدل ؟ وهذه أردافها أم الكثيب من الرمل ؟ وهذا الذي يقبله أهو ثغر محبوبته أم البرق في ضيائه ولمعانه ؟

وأن صاحبته قد خرجت عليهم ليلاً بوجه مشرق جعل عواذله فضلاً عن أصحابه يقولون: نرى شمساً وما طلع الفجر متعجبين من ذلك " وخصَّ العواذل لأنهن ينكرن عليه حبه فكان ذلك أدل على حسنها حتى يقوم عذره عند عواذله " [٣] .

ومما نلاحظه هنا أن بناء الأبيات على هذا التساؤل الحائر له قيمته فهو يشير إلى مدى سيطرة حبَّها عليه، هذا الحب الذي أفقده عقله، فلم يدر ما هذا الذي ذاقه أهو ريقها أم ماء المطر أم الخمر ؟ وهذا الذي يقبله أهو البرق أم ثغرها ؟

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١٢٣/٢.

(٢) الْبَرُودُ: البارد . الجمر: النار المتقدة واحدتها جمرة . الدعص: قور من الرمل مجتمع .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء: ١٢٣/٢ (الهامش) .

انظر إلى توالى أساليب الاستفهام وما تشير إليه من اضطراب الشاعر وذهوله وحيرته تجاه ما يراه من صاحبته .

هذا وقد قابل الشاعر في البيت الأول بين برود وجمر ليشير بذلك إلى مدى المعاناة التي يعانيها، فريقها البارد العذب في فمه نار تتقد في فؤاده؛ لأنه يُذكي نار الشوق ويهيج المحبة، كما نجد الجناس بين خمر وجمر .

ومنه التدل في الحب قول ذي الرمة [١]:

أقولُ لِدَهْنَاوِيَّةٍ عَوْهَجٍ جَرَتْ ∴ لَنَا بَيْنَ أعْلَى عُرْفَةٍ بالصَّرائِمِ

أيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلاَجِلٍ ∴ وَبَيْنَ النَّقَا آأنْتِ أمْ أُمُّ سَالِمِ [٢]

رأى ذو الرمة ظبية جميلة طويلة العنق من ظباء الدهناء تجري بين جلاجل، وهو جبل من جبال منطقة الدهناء وبين النقا وهي القطعة المحدودبة من الرمل، فرأى فيها شبها بأم سالم صاحبته فقال لها: أأنت الظبية أم أنت أم سالم ؟

وذو الرمة يعلم تمام العلم أنها ظبية الوعساء وليست أم سالم صاحبته، ولكن فرط حبه بها وشدَّة هيامه وقوَّة صبابته جعله يتجاهل هذه المعرفة، ويسوق كلامه مساق من لا يعلم، وكأن الحب قد سلب عقله وأدهشه، فصار لا يدري أهي الظبية أم أمَّ سالم صاحبته ؟

---

(١) ديوان ذي الرمة صـ٥١١، شرح وتعليق: زهير فتح الله، دار صادر، بيروت، ط: الأولى ١٩٩٥م .

(٢) دهناوية: فى لسان العرب: الدهناء: الفلاة ، والدهناء موضع كله رمل، وقيل: الدهناء موضع من بلاد بنى تميم . العوهج: الطويلة. العُرْفة: موضع، وعرف الرمل والجبل وكل عال ظهره وأعاليه. الصرائم: الرمال . الوعساء: السهل اللين من الرمل، جلاجل بالفتح: موضع، وقيل: جبل من جبال الدهناء . النقا: من الرمل القطعة المحدودية . [ينظر: لسان العرب، مادة (دهن) و (عوهج) و (عرف) و (صرم) و (عسى) و (جلل) و (نقا)].

وقد استحسن كل من ابن رشيق والعلوي صنيع ذي الرمة فقال الأول: " فلو أنه قال: (أنت أم سالم) على نفي الشك بل لو قال: (أنت أحسن من الظبية لما حلَّ من القلوب محل التشكك " (١) .

وقال الثاني: " فانظر إلى عمله في هذا البيت كيف جهَّل نفسه وأنزلها منزلة غبي لا يفرق بين أم سالم وبين الظبية الوحشية في الصورة وأنها متلبسة عليه بها ... " (٢) .

ومن التدله في الحب بطريق التجاهل قول النابغة الذبياني (٣):

أقولُ والنَّجمُ قد مالتْ أواخِرُهُ ∴ إلى المَغِيبِ تَثَبّتْ نَظْرَةً حارِ

أَلَمْحَةٌ من سَنا بَرْقٍ رأي بَصري ∴ أم وجهُ نُعْمٍ بدا لي أم سنا نارِ؟

بل وجهُ نُعْمٍ بدا والّليلُ مُعْتِكرُ ∴ فلاحُ مِن بينِ أثوابٍ وأسْتارِ(٤)

أوشك الليل أن ينصرم، ومال النجم إلى المغيب ليشير إلى قرب ظهور الصباح عند ذلك همَّ القوم بالرحيل، وخرجت معهم (نُعم) بوجهها الجميل المشرق الذي أضاء الليل وبدد ظلمته .

لقد كان لهذا الوجه الجميل، وذلك الظهور المفاجئ أثره على عقل الشاعر وأحاسيسه ومشاعره لذلك تساءل حائراً قائلاً لصاحبه حارث: " تأمل يا حارث وتثبت، وأنعم النظر هل هذا الضوء المبهر الطاهر الوضيء الذي أراه بعيداً في

---

(١) العمدة: ٥٤/٢ .

(٢) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى: ٨٠/٣، ط: دار الكتب العلمية، بيروت .

(٣) ديوان النابغة الذبياني صـ٩٢، ٩٣، شرح وتعليق: الدكتور/ حنا نصر الحتي، نشر: دار الكتاب العربي (بيروت)، ط: الثانية ١٤١٦هـ ١٩٦٦م .

(٤) حار: مرخم حارث وهو رفيق الشاعر – سنا: لمعان وبريق ، معتكر: مدلهم ومظلم واعتكر الليل اشتد سواده واختلط والتبس (اللسان عكر) .

الأفق لمحة من ضوء برق ؟ أم وجه نعم ؟ أم لهب نار بقيت تحترق وتتقد كما يتقد فؤادي وكما تحترق أنفاسي ؟ " [١] .

والأبيات بجملتها تشير إلى مدى المعاناة التي يعانيها الشاعر ومدى ما أصابه من اضطراب حتى أصبح لا يفرق بين سنا البرق، ووجه نعم ولهب النار "انظر إلى تواتر أساليب الاستفهام ودلالتها على ترائي الأطياف والاضطراب والاختطاف ...، ثم انظر توسله إلى صاحبه حارث، ورجائه إياه أن يعينه، فلعله أثبت منه قلباً وأهدأ جناناً وأقدر على الرؤية، ثم انظر إلى هذا الخطف في قوله (حارِ) وكيف حذف حرف النداء، وطرح آخر الاسم، والأصل يا حارث، وتأمل كيف لم تمهله نفسه حتى يدعو صاحبه دعاءً واضحاً، أو كيف خذلته قدرته المضطربة المتخاذلة فتخفف في اللفظ وحذف أوائله وأواخره، ثم انظر كيف تجسد الوهم وصار الحلم كأنه حقيقة يخدع بها نفسه، ويسلي بها قلبه المشغوف، ويتوهم أنها ليست لمح برق ولا سنا نار، وإنما هي وجه نعم، وهو يعلم أنها ليست نعماً فإن نعما قد ذهبت وذهبت [٢] آثارها، فليس في منازلها إلاَّ الثمام وإلاَّ موقد النار " [٣] .

---

(١) قراءة في الأدب القديم للدكتور/ محمد أبو موسى صـ ٣٤٥، ٣٤٦، طبع ونشر: مكتبة وهبة، ط: الثالثة ٢٠٠٦م .

(٢) لأنه قال في مطلع القصيدة:

عوجوا فحَيّوا لنُعْمٍ دمنَةَ الدَّارِ ∴ ماذا تُحَيُّون مِنْ نُؤْيٍ وأحْجارِ

وقال:

فما وَجَدْتُ بها شيئاً ألوذُ به ∴ إلاَّ الثُّمَامَ وإلاَّ مَوْقِدَ النَّارِ

(٣) قراءة في الأدب القديم للدكتور/ محمد أبو موسى صـ ٣٤٦.

التدله والتوله لهم أو حزن:

أكثر الشواهد التي ذكرها البلاغيون في كتبهم عن التدله جاءت حول التدله في الحب، وبمراجعة المعنى اللغوي لكلمة تدله أو توله وجدت أن المعنى اللغوي لا يقف عند الحب فقط فقد يكون لهم أو حزن أيضاً (١) .

ومن شواهد ذلك قول الخنساء في رثاء صخر (٢) :

ما هاجَ أمْ بالْعَيْنِ عُوَّارُ ∴ أمْ ذَرَّفَتْ أمْ حَلَتْ من أهْلِها الدَّارُ

ويروى البيت برواية أخرى وهي:

قَذَىَ بِعَيْنكِ أم بالعين عُوَّارُ (٣) .

الخنساء تعرف سبب بكائها، ولكن شدَّة حزنها على أخيها جعلها تظهر بمظهر الوله المتدهش الذي لا يعرف سبب بكائه فتسأل نفسها سؤال الحائر الوله ما الذي هيج عينك وجعلها تذرف الدمع بغزارة وتتابع، هل أصاب العين عوارٌ أم أن سبب البكاء هو خلو الدار من الأحبة ؟

ومن ذلك أيضاً قول الصحابي الجليل حسان بن ثابت في رثاء النبي(ﷺ)(٤).

مَا بالُ عَيْنِكَ لا تَنَامُ كأنَّما ∴ كُحِلَتْ مآقِيها بكُحْلِ الأرْمَدِ

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (دله): ٤٩١٩/٦ .

(٢) شرح ديوان الخنساء لأبي العباس ثعلب صـ٢٢٥، ٢٢٦، تقديم: د/ فايز محمد، ط: دار الكتاب العربي، ط: الثالثة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

(٣) القذى: ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تين أو وسخ أو غير ذلك، العوار: الذي يجده الإنسان في عينه شبه الحصاة أو العود من الرمد .

(٤) ديوان حسان بن ثابت صـ٦٥، شرح وتقديم: الأستاذ/ عيد مهنا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

البيت مطلع قصيدة لحسان بن ثابت في رثاء النبي (ﷺ)، وفيه يسأل حسان (ﷺ) سؤال العارف المتجاهل والحائر المتدهش: ماذا جرى لعينك حتى هجرها النوم، وجافاها النعاس كأنها رمداء ؟

وحسان وإن كان يعرف سبب ذلك إلاَّ أن هول الموقف وعظم المصيبة وهي فقد النبي (ﷺ) أفقده وعيه، وضيع رشده وعقله، وجعله يظهر بمظهر الحائر المتدهش الذي سلب عقله وفكره .

النكتة الخامسة: جلب المخاطب إلى معرفة الحقيقة حتى يفيق من غفلته:

يقول الله تعالى حكاية لحال إبراهيم (عليه السلام) مع قومه:

﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

المحاجة تكون من اثنين مختلفين في حكمين يدلي كل منهما بحجته على صحة دعواه (٢) .

أورد إبراهيم (عليه السلام) حجته على قومه، وبين خطأهم في عبادتهم غير الله تعالى في الحوار الذي ساقته الآيات السابقة على هاتين الآيتين، وفي نهاية المحاجة حسم لهم الأمر، وأعلن لهم عن معتقده فقال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) .

وكما أورد إبراهيم حجته على قومه أورد القوم عليه حججاً يدللون بها على صحة ما يعتقدون ذكر شيئاً منها الرازي في تفسيره فقال: " اعلم أن إبراهيم (عليه السلام) لما أورد عليهم الحجة المذكورة فالقوم أوردوا عليه حججاً على صحة أقوالهم منها أنهم تمسكوا بالتقليد كقولهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ (٤)، وكقولهم للرسول (عليه السلام) ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٥)،

---

(١) سورة: الأنعام، الآيتان [٨٠، ٨١] .
(٢) البحر المحيط: ١٦٩/٤ .
(٣) سورة: الأنعام، آية [٧٩] .
(٤) سورة: الزخرف، من الآية [٢٣] .
(٥) سورة: ص، آية [٥] .

ومنها: أنهم خوَّفوه بأنك لما طعنت في إلهية هذه الأصنام وقعت من جهة هذه الأصنام في الآفات والبليات، ونظير هذا ما حكاه الله تعالى في قصة قوم هود: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ ﴾ (١)، فذكروا هذا الجنس من الكلام مع إبراهيم (عليه السلام) (٢) .

لقد تمثلت حجج هؤلاء في أنهم وجدوا آبائهم على ذلك وهم على آثارهم مقتدون، يضاف إلى ذلك أنهم خوَّفوه بالأصنام من أن تلحق به ضرراً وقالوا له: " أما خفت أن تصيبك آلهتنا ببرص أو داء لأذايتك لها وتنقصيك فقال لهم: لست أخاف الذي تشركون به لأنه لا قدرة له ولا غنى عنده " (٣) .

وهذا ما حكاه القرآن على لسان إبراهيم بقوله ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا ﴾ .

ثم تعجب إبراهيم (عليه السلام) من صنيع هؤلاء الذي ينبئ عن فساد عقولهم حيث خوَّفوه خشباً وحجارة لا تضر ولا تنفع وهم لا يخافون عاقبة شركهم بالله وهو الذي بيده النفع والضر، فقال منكراً ومتعجباً ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال الزمخشري في معنى الآية: " ما لكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف " (٤) .

والذي أريد أن أقف عنده هو أن إبراهيم (عليه السلام) وإن كان لا يتشكك في أنه هو الأمن إلاَّ أنه أبرز الأمر في صورة الاحتمال استمالة لقلوبهم، والجاءً لهم إلى

---

(١) سورة: هود، من الآية [٥٤] .
(٢) التفسير الكبير: ٨٠/١٣ .
(٣) البحر المحيط: ١٦٩/٤ .
(٤) الكشاف: ٣٢/٢ .

الاعتراف باستحقاقه (عليه السلام) للأمن دونهم .

قال أبو حيان: " لما خوَّفوه في مكان الأمن ولم يخافوا في مكان الخوف أبرز الاستفهام في صورة الاحتمال وإن كان قد علم قطعاً أنه هو الآمن لا هم كما قال الشاعر:

فَلَئِنْ لقيتُكَ خَالِيَيْنِ لَتَعْلَمَنْ ∴ أيِّي وَأَيُّكَ فارسُ الأَحْزَابِ

أي أينا ومعلوم عنده أنه هو فارس الأحزاب لا المخاطب " (١) .

كما أنه أضاف أيّاً إلى الفريقين ويقصد بهما فريق المشركين وفريق الموحدين، ولم يقل أينا أحق بالأمن أنا أم أنتم احترازاً من تجريد نفسه، فيكون ذلك تزكية لها، وتفادياً عن التصريح بتخطئتهم التي ربما تدعو إلى اللجاج والعناد، وإشارة إلى أن أحقية الأمن لا تخصه (عليه السلام)، بل تشمل كل موحد ترغيباً لهم في التوحيد " (٢) .

(١) البحر المحيط: ٤/١٧٠، ١٧١ .

(٢) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٧/٢٠٧ .

النكتة السادسة: التنبيه على خطأ وقع فيه المخاطب فيقلع عنه:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ ﴾ (١) .

الخطاب في الآية – كما يرى ابن جزي الكلبي – لجنس بني آدم فيدخل فيه الكفار، وعصاة المؤمنين، ومن يغفل عن الله تعالى في بعض الأحيان من الصالحين " (٢) .

بينما يرى الرازي أن الخطاب إما للكافر، وذلك لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ (٣)، أو لجميع العصاة، وهذا عنده هو الأقرب؛ لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ " (٤) .

ومعنى الآية " يا أيها الإنسان أي شيء خدعك، وجرأك على معصية ربك الكريم الذي من مظاهر كرمه أنه خلقك، فسواك بأن جعل أعضاءك سوية سليمة مهيأة لاكتساب منافعها على حساب ما تقتضيه حكمة خالقك، وعدَّل أعضاءك فجعلها متناسقة متوازنة بعضها مع بعض " (٥) .

والسؤال في الآية موجه من الله تعالى إلى الإنسان عن سبب غروره في الدنيا، والله تعالى يعلم ذلك فليس هناك حاجة إلى أن يسأل، وطالما الأمر كذلك فما الغرض من السؤال إذا ؟

يجاب على ذلك بأن هناك من يرى أن الغرض من السؤال التوبيخ

---

(١) سورة: الانفطار، الآيات [٧ – ٨] .
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل: ١٨٢/٤ .
(٣) سورة: الانفطار، آية [٩] .
(٤) مفاتيح الغيب: ٧٢/٣١، ٧٣ .
(٥) التفسير الوسيط: د/ محمد سيد طنطاوي: ٣١١/١٥ .

والعقاب[١] أو الإنكار والتعجيب [٢] .

والذي أراه أن الغرض من السؤال عن الأمر المعلوم هنا هو تذكير الإنسان بفضل ربه، وتنبيهه على خطئه في معصيته حتى يرجع عنها يؤيد ذلك إيثار تعريف الله – تعالى – بصفة الرب، لما في معنى الرب من التربية والرعاية والملكية والإيجاد من العدم " [٣] .

كذلك وصف الله – تعالى – بالكريم في هذا المقام، وفي هذا تنبيه على أمر مهم، وهو أن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكراً لإحسانه ومقابلة لإنعامه، ومن يفعل غير ذلك فقد جحد النعمة وضيع الشكر الواجب واستوجب التنبيه على خطئه حتى يقلع عنه ولا يتمادى فيه .

يضاف إلى ذلك أن الله تعالى في الآية التي بعدها ذكره بعض نعمه على هذا الإنسان، وهي نعم بدورها تستحق الطاعة والشكر لا العصيان والنكران فقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ... ﴾ .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: ١٨٢/٤ .

(٢) التحرير والتنوير: ١٧٤/٣ .

(٣) التفسير الوسيط: د/ محمد سيد طنطاوي: ٣١٠/١٥، ط: دار المعارف ١٩٩٢م .

النكتة السابعة: الإنكار والمغالطة:

وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ (١) .

تصف الآية الكريمة ما وصل إليه أولئك القوم من تطاول واستهتار وسوء أدب، فإذا قال لهم الرسول والذين آمنوا معه اجعلوا سجودكم للرحمن الذي يعمكم بفضله وكرمه ردُّوا ردَّ عالٍ متكبر متجاهلين عن معرفته فضلاً عن كفر نعمته معبرين بأداة ما لا يعقل ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ؟ ثم عجبوا من أمره منكرين عليه بقولهم: ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ ؟ وزادهم هذا الأمر الواضح المقتضي للإقبال والسكون شكراً للمنعم وطمعاً في الزيادة نفوراً " (٢) .

هذا وقد اختلفت أقوال العلماء في نوع الاستفهام في الآية: هل يمكن حمله على أصله وكذلك في تعيين المسئول عنه .

فالزمخشري يرى أن الاستفهام في الآية على أصله يقول: ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ يجوز أن يكون سؤالاً عن المسمى به؛ لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول (بما)، ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه، لأنهم لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم، أو لأنهم أنكروا اطلاقه على الله تعالى " (٣) .

كذلك ذكر الرازي جملة من الأقوال فقال: " هو خبر عن قوم قالوا هذا القول ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى، ويحتمل أنهم وإن عرفوه لكنهم جحدوه، ويحتمل أنهم وإن اعترفوا به لكنهم جهلوا أن هذا الاسم من أسماء الله تعالى"(٤) .

---

(١) سورة: الفرقان، الآية [٦٠] .
(٢) نظم الدرر للبقاعي: ٣٣٢/٥ .
(٣) الكشاف: ٩٨/٣ .
(٤) مفاتيح الغيب: ٩١/٢٤، ٩٢ .

كذلك ذكر الألوسي جملة من هذه الأقوال لم تخرج كثيراً عن الذي ذكره السابقون، لكنه صدَّرها بأن يكون سؤالهم هذا على سبيل التجاهل والوقاحة، ثم رجح هذا الأمر بعد ذلك .

قال: " قالوا على سبيل التجاهل والوقاحة: ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ؟ كما قال فرعون: وما رب العالمين ؟ حين قال له موسى (عليه السلام) ﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) وهو عالم به (عز وجل) كما يؤذن بذلك قول موسى (عليه السلام) له ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ (٢) ... فالأظهر أن ذلك عن تجاهل وأن السؤال عن المسمى " (٣) .

وإذا كان الزمخشري يرى أن الاستفهام في الآية على أصله فإن أبا حيان يرى أن الأولى حمل السؤال على التجاهل للإنكار والمغالطة وإبراز وقاحتهم، فبعد أن ذكر كلام الزمخشري قال: " والذي يظهر أنهم لما قيل لهم اسجدوا للرحمن فذكرت الصفة المقتضية للمبالغة في الرحمة، والكلمة عربية لا ينكر وضعها أظهروا التجاهل بهذه الصفة التي لله مغالطة منهم ووقاحة، فقالوا: وما الرحمن وهم عارفون به وبصفته الرحمانية، وهذا كما قال فرعون: وما رب العالمين ؟ حين قال له موسى إني رسول من رب العالمين على سبيل المناكرة وهو عالم برب العالمين ...، فكذلك كفار قريش استفهموا عن الرحمن استفهام من يجهله وهم عالمون به " (٤) .

وما ذهب إليه أبو حيان هو ما أميل إليه، وأن سؤالهم هذا إنكار لله لا للاسم، فاللفظة عربية ولا يخفى عليهم أنها تفيد المبالغة في الإنعام وواقعهم يشهد بذلك .

---

(١) سورة: الأعراف، من الآية [١٠٤] .
(٢) سورة: الإسراء، آية [١٠٢] .
(٣) روح المعاني: ٣٩/١٩ .
(٤) البحر المحيط: ٥٠٩/٦ .

النكتة الثامنة: التحقير:

في لسان العرب التحقير بمعنى التصغير، والحقير: الصغير الذليل واحْتَقَرَهُ واسْتَحْقَرَهُ: اسْتَصْغَرهُ ورآه حقيراً (١) .

وقد ذكر الخطيب القزويني التحقير وعدَّه نكتة من نكات تجاهل العارف (أو سوق المطلوب مساق غيره) وفي اختصار شديد مثل له بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) .

هذه الآية معطوفة على قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

وهي تحكي قولة أخرى من شناعة الكافرين من مشركي مكة المنكرين للبعث والجزاء، فقد قالوا أولاً لا تأتينا الساعة بمعنى لا قيامة أبداً ولا بعث ولا نشور، ثم قالوا ثانياً: هل نرشدكم إلى رجل يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب وهي أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق .

قال الشيخ الطاهر بن عاشور وهذا القول قائم مقام الاستدلال على القول الأول لأن قولهم ﴿ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ دعوى وقولهم ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ مستند تلك الدعوى ولذلك حكى بمثل

---

(١) لسان العرب مادة (حقر) .
(٢) سورة: سبأ، الآية [٧] .
(٣) سورة: سبأ، الآية [٣] .

الأسلوب الذي حكيت به الدعوى في المسند والمسند إليه " [١] .

ولما كان هذا الخبر عندهم بمكان من الغرابة عبَّروا عنه بقولهم: (ينبئكم) دون يخبركم " إذ أن لفظ الخبر مطلق يطلق على ما له شأن وما ليس له شأن"[٢]، أما لفظ النبأ فيطلق على ما له شأن وفيه غرابة [٣]، ولذلك قال الهدهد لسليمان (عليه السلام) ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [٤] .

كما أنه لم يذكر في الآية المخاطب بقوله ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ ﴾ ؛ لأن المقصود منها الاعتبار بشناعة القول ولا غرض يتعلق بالمقول لهم .

هذا وإن كان بعض العلماء يرى أن هذا القول كان من أهل مكة للواردين عليهم في الموسم يقول البقاعي في نظم الدرر: (﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي الذين تحققوا أمره (ﷺ)، وأجمعوا خلافه، وعتوا على العناد لمن يَرِدُ عليهم ممن لا يعرف حقيقة حاله معجبين ومنفرين) [٥] .

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور: (ويجوز أن يكون هذا تقاولاً بينهم أو يقوله بعضهم لبعض، أو يقوله كبراؤهم لعامتهم ودهمائهم، ويجوز أن يكون قول كفار مكة للواردين عليهم في الموسم، وهذا الذي يؤذن به فعل (ندلكم) من أنه خطاب لمن لم يبلغهم قول النبي (ﷺ) [٦] .

---

(١) التحرير والتنوير: ١٤٧/٢٢ .

(٢) البحر المحيط: ٦٧/٧ .

(٣) المسائل البلاغية في تفسير ابن كمال باشا من أول سورة الفرقان إلى آخر سورة الصافات تحقيق ودراسة صـ٢٩٣، رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بالقاهرة للباحث: محمد سيد سلطان عبد الرحيم، وكذلك حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ١٩٠/٧، ١٩١ .

(٤) سورة: النمل، من الآية [٢٢] .

(٥) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٥٢/٦ .

(٦) تفسير التجريد والتنوير: ١٤٧/٢٢ .

إلاَّ أن جل علماء التفسير يرى أن هذا القول صدر من مشركي قريش بعضهم لبعض، يقول الزمخشري: (الذين كفروا) قريش قال بعضهم لبعض ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ ﴾ يعنون محمداً (ﷺ) يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً، ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق)[١] .

وتبعه في هذا أبو حيان والقاضي البيضاوي والشهاب والألوسي [٢] .

وإذا كان هذا القول صدر من مشركى مكة بعضهم لبعض كما ذهب جل علماء التفسير، فهم يعرفون عين المعرفة النبى (ﷺ) إذاً فمال الغرض من إخراجهم المعلوم فى صورة غير المعلوم، والسؤال عنه بطريق التجاهل، أقول: الكلام بهذه الطريقة يصادف هواهم، ويحقق لهم غرضهم الفاسد ومقصدهم الخبيث، وهو التقليل من شأن النبى (ﷺ) يساعد على ذلك تنكيرهم له فى قولهم: (رجل) وما توحى به من تقليل وتحقير لشأنه (ﷺ) برأه الله (ﷻ) مما قالوا .

---

(١) الكشاف: ٢٨٠/٣ .

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٢٥٩/٧، وتفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه: ١٩٠/٧، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١٠٩/٢٢ .

النكتة التاسعة: التعريض:

ذكر الخطيب القزويني التعريض آخر النكات التي يأتي بها الكلام بطريق التجاهل أو سوق المعلوم مساق غيره، ومثل له بقول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

والمتأمل في الآية يجد أنها صدَّرت بسؤال قصد به إقامة الحجة على المشركين وإلزامهم ترك عبادة آلهتهم لأنها لا تستحق العبادة (لأن مستحق العبادة هو الذي يرزق عباده؛ فإن العبادة شكر ولا يستحق الشكر إلاَّ المنعم) (٢) .

وقد جاء السؤال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والجواب: ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ من طرف واحد، وهو السائل جلا وعلا؛ لتحقق أنهم لا ينكرون الجواب.

هذا والله ورسوله أعلم بمن هو على هدى ومن هو في ضلال مبين، ولكن سيق الكلام هذا المساق، وأخرج المعلوم في صورة غير المعلوم؛ للتعريض بعدم هداهم، (وفيه فائدة أخرى، وهي استمالة هؤلاء الكفرة وحثهم على التأمل والنظر، حتى يصلوا إلى درجة الحق والصواب، فيكون ذلك أدعى لهدايتهم وإيمانهم) (٣) .

ومن الممكن أن يكون قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ من الكلام المنصف، أو من إرخاء العنان للمناظِر، وإلى الأول أشار الزمخشري في كشافه حين قال: (وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك) (٤) .

---

(١) سورة: سبأ، آية [٢٤] .

(٢) التحرير والتنوير: ١٩١/٢٢ .

(٣) ينظر: علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: د/ بسيونى عبد الحميد فيود، صـ ، نشر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط: الثالثة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

(٤) الكشاف: ٢٨٩/٣ .

النكتة العاشرة: التهكم:

يأتي الكلام بطريق التجاهل أو ينزل المعلوم منزلة المجهول ويراد من وراء ذلك التهكم بعقول المخاطبين، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (١) .

ذكرت الآيات السابقة على هذه الآية كفر هؤلاء وجعلهم لله (ﷻ) ولداً في قوله تعالى:﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾(٢) أي ولداً، ثم جاءت هذه الآية لتحكي موقفاً آخر أو لوناً آخر من ألوان كفرهم الواضح الصريح، وهو الاستخفاف بملائكة الله (ﷻ)، ووصفهم بالأنوثة (وهم العباد المكرمون المبرأون من الذكورة والأنوثة، فإنها من عوارض الحيوان المتغذي المحتاج إلى بقاء نوعه) (٣) .

ولما كان هذا الوصف لا يعلم إلاَّ بالمشاهدة قال الله (ﷻ): ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أي أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم، وقد أطلق الله تعالى على هذا الادعاء شهادة تهكماً بهم، وقيل: سألهم الرسول (ﷺ) ما يدريكم أنهم إناث ؟ قالوا سمعنا ذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا) (٤) .

والسؤال الذي وجهه الله تعالى لهؤلاء القوم لا يليق بقائله أن يريد به الاستعلام – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً –، ولكنه خرج بهذه الطريقة، وسيق المعلوم مساق غير المعلوم، وذلك يسفه أحلامهم ويتهكم بعقولهم ويجهلهم ويفضح جريرتهم على مدى الأزمان، ومن ثم فإنه لا يتطلب جواباً .

---

(١) سورة: الزخرف، آية [١٩] .
(٢) سورة: الزخرف، آية [١٥] .
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٧١/٢٥ .
(٤) المصدر السابق: ٧٢/٢٥ .

يقول الزمخشري: (وهذا تهكم بهم بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم الله، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم فلم يبق لهم إلاَّ أن يشاهدوا خلقهم)[١] .

ويقول أبو السعود ويتابعه الآلوسي: (وهو تجهيل لهم وتهكم بهم) [٢] .

(١) الكشاف: ٤٨٣/٣ .

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود: ٤٣/٨، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٧٢/٢٥.

الخاتمة

الحمد لله ربه العالمين أحمده (ﷻ) حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه وأصلي وأسلم على صفوة أنبيائه وخاتم رسله سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،،

فمن خلال هذه الصحبة الطويلة والدراسة المتأنية لهذا المحسن البديعي توصلت إلى عدَّة نتائج يمكن إجمالها فيما يلي:-

أولاً: حقق البحث أن هذا المحسن البديعي من ابتكارات عبد الله بن المعتز، ولكن إذا كان لابن المعتز فضل السبق والابتكار فإن للذين أتوا بعده مباشرة كأبي هلال العسكري، وابن رشيق القيرواني – وإن اختلفا عنه في التسمية – فضل التوضيح والشرح، وزيادة بعض الأمور التي لم ترد عنده كتعريفه والفائدة منه .

ثانياً: أن كلام الأوائل عن هذا المحسن البديعي منذ نشأته كان يدور حول تعريفه وقيمته البلاغية، وذكر الشواهد له. وأن ابن أبي الأصبع المصري هو أول من ذكر لهذا اللون نكاتاً وأغراضاً بلاغية، وأن الخطيب القزويني جعل هذه النكات شرطاً لمجيء الكلام بطريق التجاهل .

ثالثاً: لم يرتض السكاكي عبارة ابن المعتز (تجاهل العارف) وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم، ورأي العدول عنها إلى عبارة (سوق المعلوم مساق غيره) .

ولم يذكر السكاكي سبب ذلك، ولكن البلاغيين بعده التمسوا له سبباً وعلَّة كسعد الدين التفتازاني، وأكمل الدين البابرتي، وابن يعقوب المغربي وغيرهم، وكلامهم جميعاً يدور حول أنه لا يحب أن يقال في الكلام المنسوب إلى الله تعالى (تجاهل العارف)، وهناك علَّة أخرى التمسها العصام لعدول السكاكي عن (تجاهل العارف) إلى (سوق المعلوم مساق غيره) وإن لم يتناقلها البلاغيون المعاصرون كما تناقلوا ما ذهب إليه السعد والبابرتي وابن يعقوب المغربي .

وما التمسه العصام هو أن عبارة (تجاهل العارف) تفيد أنه صفة للمتكلم دون الكلام، والواقع أنه صفة للكلام سمي باسم ما هو صفة المتكلم به، ولما كان الأمر كذلك فعبارة (سوق المعلوم مساق غيره) هي الأنسب للإطلاق على مثل هذا اللون من الكلام لا عبارة (تجاهل العارف) .

وإن كانت عبارة ابن المعتز هي التي كتب لها الشهرة والاستمرار عند البلاغيين الذين أتوا بعد السكاكي إلى يومنا هذا حتى من استحسن منهم عبارة السكاكي فقد أبقى على عبارة ابن المعتز (تجاهل العارف) فيما جاء من كلام الله تعالى ومن كلام العرب شعراً ونثراً .

رابعاً: فرّق البحث بين الاستفهام التقريري وتجاهل العارف وذهب إلى أن تجاهل العارف يلتقي مع الاستفهام إذا أتى للتحقيق والتثبيت؛ لأنه لا يتطلب جواباً، ويفترق عنه إذا كان المراد به حمل المخاطب على الإقرار بمضمون الكلام، وأن (تجاهل العارف) أوسع دائرة من الاستفهام التقريري، وأن الأمر فيه خاص بالمتكلم، ولا دخل فيه للمخاطب، كما أنه يأتي أحياناً بغير صيغة سؤال .

خامساً: خصَّ بعض البلاغيين (تجاهل العارف) بالتشبيه فقط منهم من صرَّحَ بذلك، ومنهم من فهم ذلك من أمثلته التي ذكرها، وارتضى البحث قبول (تجاهل العارف) مطلقاً سواء جاء عن طريق التشبيه أو عن طريق غيره طالماً تحقق في الكلام أمران:

أحدهما: أمر معلوم سيق مساق المجهول .

وثانيهما: تضمن ذلك السوق نكتة راعاها المتكلم عند اخراجه الكلام بطريق التجاهل .

سادساً: أن بعض البلاغيين المتأخرين كسعد الدين التفتازانى وابن يعقوب المغربى فتح للباحثين أبواب البحث عن نكات أخرى غير التي ذكرها البلاغيون في كتبهم، وقد حقق البحث شيئاً من هذا، فلم يقف عند الذي ذكره البلاغيون، وإنما أضاف نكاتاً أخرى مستعيناً في تحديدها بالسياق وقرائن الأحوال .

المصادر والمراجع

١- الأطول – شرح تلخيص المفتاح تحقيق: الدكتور / عبد الحميد هنداوي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م .

٢- الأعلام لخير الدين الزركلي، ط: دار العلم للملايين، ط: الثانية عشر ١٩٩٧م.

٣- الإيضاح للخطيب القزويني وبهامشه بغية الإيضاح للشيخ / عبد المتعال الصعيدي، ط: ونشر مكتبة الآداب من دون تاريخ .

٤- أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم، تحقيق: شاكر هادي شكر .

٥- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ط: دار الفكر، ط: الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

٦- البديع – تصنيف عبد الله بن المعتز، تعليق: اغناطيوس كراتشقوفسكي، ط: دار المسيرة (بيروت)، ط: الثالثة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

٧- بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري، تحقيق الدكتور / حفني شرف، ط: دار نهضة مصر، ط: الثانية .

٨- البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ . تحقيق د/ أحمد أحمد بدوي والدكتور / حامد عبد المجيد، ط: ونشر: مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م

٩- البديع من المعاني والألفاظ للدكتور / عبد العظيم إبراهيم المطعني، ط: دار وهدان للطباعة والنشر، ط: الأولى ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

١٠- التبيان في علم البيان المُطْلع على إعجاز القرآن، تأليف: عبد الواحد بن عبد الكريم الزّملكانى. تحقيق: الدكتور / أحمد مطلوب، والدكتورة / خديجة الحديثي، ط: مطبعة العاني بغداد، ط: الأولى ١٣٨٢هـ - ١٩٦٤م .

١١- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان للطيبي تحقيق: الدكتور / هادي عطية مطر . مكتبة نهضة مصر، ط: الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

١٢- تحرير التحبير لابن أبي الأصبع المصري - تحقيق: الدكتور / حفني شرف، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

١٣- التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور . نشر: دار سحنون للتوزيع والنشر (تونس) .

١٤- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي. نشر: دار الكتاب العربي (بيروت)، ط: الرابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٧م .

١٥- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . نشر: دار إحياء التراث العربي (بيروت)، ط: الثانية ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

١٦- التفسير الوسيط للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي، ط: دار المعارف ١٩٩٢م .

١٧- التلخيص في علوم البلاغة للخطيب القزويني . ضبط وشرح الأستاذ / عبد الرحمن البرقوقي، ط: دار الفكر العربي . من دون تاريخ .

= التلخيص شرح: محمد هاشم دويدري، ط: دار الجيل (بيروت)، ط: الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

١٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط: دار الكتب العلمية (بيروت)، ط: الخامسة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

١٩- حاشية الدسوقي على مختصر سعد الدين التفتازاني (ضمن شروح التلخيص)، ط: دار السرور .

٢٠- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي . دار صادر - بيروت .

٢١- حدائق السحر في دقائق الشعر لرشيد الدين الوطواط . ترجمه عن الفارسية إبراهيم أمين الشواربي، ط: لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٤٥هـ .

٢٢- خزانة الأدب وغاية الإرب لابن حجة الحموي، تحقيق وشرح: عصام شعيتو، نشر: دار الهلال بيروت، ط: الثانية ١٩٩١م .

٢٣- ديوان ابن المعتز . شرح: مجيد طراد . نشر: دار الكتاب العربي (بيروت)، ط: الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٢٤- ديوان ابن هاني الأندلسي -، ط: دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٢٥- ديوان البحتري . شرح د/ يوسف الشيخ محمد، ط: دار الكتب العلمية (بيروت)، ط: الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

٢٦- ديوان جرير، ط: دار صادر - بيروت .

٢٧- ديوان حسان بن ثابت . شرح وتقديم الأستاذ / عيد مهنا، ط: دار الكتب العلمية (بيروت)، ط: الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٢٨- ديوان ذي الرمة . شرح وتعليق: زهير فتح الله -، ط: الأولى دار صادر - بيروت ١٩٩٥م .

٢٩- ديوان زهير تحقيق الدكتور / محمد محمود، ط: دار الفكر العربي، ط: الأولى ١٩٩٥م .

٣٠- ديوان عمر بن أبي ربيعة . تحقيق د/ فايز محمد . نشر: دار الكتاب العربي (بيروت)، ط: الثالثة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٣١- ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان ضبط وتصحيح مصطفى السقا وآخرون، ط: مصطفى البابي الحلبي، ط: الأخيرة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

٣٢- ديوان مجنون ليلى، شرح وضبط د/ عمر فاروق الطباع، ط: دار العلم للملايين (بيروت) لبنان .

٣٣- ديوان النابغة شرح وتعليق د/ حنا نصر الحتي، نشر: دار الكتاب العربي، ط: الثانية ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٣٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي (بيروت)، ط: الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٣٥- شرح ديوان جرير لإيليا الحاوي، ط: الشركة العالمية للكتاب، ط: الثانية ١٩٩٥م .

٣٦- شرح ديوان الخنساء لأبي العباس ثعلب . تقديم: د/ فايز محمد، ط: دار الكتاب العربي، ط: الثالثة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

٣٧- شرح التلخيص للشيخ أكمل الدين البابرتي، دراسة وتحقيق محمد مصطفى رمضان صوفية، ط: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط: الأولى ١٣٩٢هـ - ١٩٨٣م .

٣٨- شرح السعد المسمى مختصر المعاني للعلامة سعد الدين التفتازاني . تحقيق: الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة محمد علي صبيح من دون تاريخ.

٣٩- شرح الكافية البديعية لصفي الدين الحلي . تحقيق: الدكتور / نسيب نشاوي دمشق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٤٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة . تحقيق: د/ مفيد قميحة والأستاذ / نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٤١- الشوقيات لأحمد شوقي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، من دون تاريخ .

٤٢- الصبغ البديعي في اللغة العربية للدكتور / أحمد إبراهيم موسى . نشر: دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م .

٤٣- طراز الحلة وشفاء الغلة للغرناطي . تحقيق: الدكتورة / رجاء السيد الجوهري .طبع: مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية .

٤٤- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوى، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٥- عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي (ضمن مجموعة الشروح)، ط: دار السرور.

٤٦- عقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي، ط: ونشر: مصطفى البابي الحلبي، ط: الثانية ١٣٧٤هـ - ١٩٩٥م .

٤٧- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع للدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، نشر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط: الثالثة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

٤٨- علوم البلاغة عند العرب والفرس (دراسة مقارنة) للدكتور/ إحسان صادق سعيد، نشر: المستشارية الثقافية الإيرانية، دمشق، ط: الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

٤٩- العقد الفريد لابن عبدربه، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: أولى ١٤٠٤هـ.

٥٠- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني. تحقيق: الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد، ط: دار الجيل (بيروت)، ط: الخامسة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٥١- قانون البلاغة في نقد النثر والشعر لابن حيدر البغدادي، تحقيق د/ محسن غياض، ط: مؤسسة دار الرسالة، ط: الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

٥٢- قراءة في الأدب القديم للأستاذ الدكتور / محمد أبو موسى،، ط: ونشر: مكتبة وهبة، ط: الثالثة ٢٠٠٦م .

٥٣- الكامل فى اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: ونشر: دار الفكر العربي من دون تاريخ .

٥٤- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال العسكري . تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط: ونشر: دار الفكر العربي -، ط: الثانية من دون تاريخ .

٥٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى، ط: محمد على صبيح، ط: الأخيرة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

٥٦- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب لضياء الدين ابن الأثير . تحقيق الدكتور / النبوي عبد الواحد شعلان، ط: الزهراء للإعلام العربي، ط: الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

= كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب لضياء الدين ابن الأثير . تحقيق الأفاضل د/ نوري حمودي القبس، د/ حاتم صالح الضامن، والأستاذ / هلال ناجي . منشورات جامعة الموصل بغداد .

٥٧- لسان العرب لابن منظور شرح وتعليق علي شيري، ط: دار إحياء التراث العربي، ط: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٥٨- مجنون ليلى دراسة أدبية لشعره وشرح ديوانه لمحمود عاصى، ط: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٥٩- محاسن الكلام أو كتاب المحاسن فى النظم والنثر لأبى الحسن نصر بن الحسن المرغينانى، تحقيق: محمد فشاركى، مطبعة بروين، أصفهان ١٣٦٤هـ .

٦٠- المصباح فى المعانى والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك، تحقيق: د/ حسنى عبد الجليل يوسف، ط: مكتبة الآداب، ط: الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م .

٦١- المطول لسعد الدين التفتازانى، مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ .

٦٢- المعايير البلاغية في قانون البلاغة لابن حيدر البغدادي: د/ حسن إسماعيل عبدالرازق، ط: دار الطباعة المحمدية، ط: الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٦٣- معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، ط: دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٩٣م .

٦٤- معجم أعلام شعراء المدح النبوى لمحمد أحمد درينقة، تقديم: ياسين الأيوبى، نشر مكتبة دار الهلال، ط: أولى من دون تاريخ

٦٥- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

٦٦- مفتاح العلوم للسكاكى، تحقيق: نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٦٧- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى(ضمن شروح التلخيص)، ط: دار السرور.

٦٨- النبع الصافي للأستاذ الدكتور/ محمد السعدي فرهود، دار الطباعة المحمدية – ، ط: الأولى ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

٦٩- نظم البديع في مدح خير شفيع للسيوطي، تحقيق الشيخ/ علي محمد معوض، والشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، نشر: دار القلم العربي بحلب، ط: الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

٧٠- نظم الدر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن البقاعي، خرّج آياته وأحاديثه ووضع هوامشه: عبد الرازق غالب المهدي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٧١- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدين الرازى، تحقيق: د/ بكري شيخ أمين. ط: دار العلم للملايين – بيروت – ط: الأولى سنة ١٩٨٥م .

الرسائل العلمية:

٧٢- الفتح المبين في مدح الأمين وشرحها للسيدة الفاضلة عائشة الباعوينة، تحقيق ودراسة الباحث: عبد العزيز عبد السلام محمد مخلوف، رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بالقاهرة .

٧٣- المسائل البلاغية في تفسير ابن كمال باشا من أول سورة الفرقان إلى آخر سورة الصافات، تحقيق ودراسة للباحث: محمد سيد سلطان عبد الرحيم، رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بالقاهرة.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٦٢٨١
٢	الفصل الأول: تجاهل العارف دراسة تاريخية	٦٢٨٤
٣	المبحث الأول: تجاهل العارف من عصر ابن المعتز إلى عصر السكاكي	٦٢٨٥
٤	المبحث الثاني: تجاهل العارف عند المتأخرين بعد السكاكي	٦٣١٣
٥	المبحث الثالث: تجاهل العارف عند بعض شراح البديعيات	٦٣٢٧
٦	بين الاستفهام التقريري وتجاهل العارف	٦٣٣٤
٧	الفصل الثاني: تجاهل العارف دراسة فنية	٦٣٣٧
٨	النكتة الأولى: التوبيخ.	٦٣٤١
٩	النكتة الثانية: المبالغة في المدح.	٦٣٦١
١٠	النكتة الثالثة: المبالغة في الذم.	٦٣٦٨
١١	النكتة الرابعة: التدله لحب أو غيره.	٦٣٧٢
١٢	النكتة الخامسة: جلب المخاطب إلى معرفة الحقيقة حتى يفيق من غفلته.	٦٣٨٤
١٣	النكتة السادسة: التنبيه على خطأ وقع فيه المخاطب فيقلع عنه.	٦٣٨٧
١٤	النكتة السابعة: الإنكار والمغالطة.	٦٣٨٩
١٥	النكتة الثامنة: التحقير.	٦٣٩١
١٦	النكتة التاسعة: التعريض.	٦٣٩٤
١٧	النكتة العاشرة: التهكم.	٦٣٩٥
١٨	الخاتمة.	٦٣٩٧
١٩	المصادر والمراجع.	٦٣٩٩
٢٠	فهرس الموضوعات.	٦٤٠٧